

مجالس التدبر (١)

ثلاثون مجلساً في التدبر

مجالس علمية وإيمانية

إعداد اللجنة العلمية



دار الحضارة للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى


ثلاثون مجلساً في التدبر
مجالسُ علميّةٍ وإيمانيّةٍ
إعدادُ اللّجنةِ العلميّةِ في مركز تدبُّر



مركز تدبر للدراسات والاستشارات

مجالس التدبر (١)

ثلاثون مجلساً في التدبر

مجالس علمية وإيمانية

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢

الرياض - الدائري الشرقي - مخرج ١٥

هاتف ٢٥٤٩٩٩٣ - تحويلة ٣٣٣

ناسوخ ٢٥٤٩٩٩٦

ص.ب. ٩٣٤٠٤ الرمز: ١١٦٨٤

البريد الحاسوبي: tadabbor@tadabbor.com

www.tadabbor.com

. . . .

ح مركز تدبر للاستشارات التربوية والتعليمية، ١٤٣٣هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مركز تدبر للاستشارات التربوية والتعليمة

ثلاثون مجلسا في التدبر: مجالس علمية وإيمانية

/مركز تدبر للاستشارات التربوية والتعليمية - الرياض، ١٤٣٣هـ

٢٠٢ ص؛ ١٧ × ٢٢سم

ردمك: ١-٠-٩٠٣٦٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن - مباحث عامة ٢- القرآن - التفسير الحديث أ. العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٣٣/٦٢٣٤

رقم الإيداع: ١٤٣٣/٦٢٣٤

ردمك: ١-٠-٩٠٣٦٤-٦٠٣-٩٧٨


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة رئيس الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم

الحمد لله الذي أكرمنا بنزول القرآن، ومنّ علينا ببعثة سيد ولد عدنان، وصلى الله على مَنْ كان خلقُه القرآن، فزكاه ورباه بـ ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ وربّى أصحابه بمدارسة آياته في مجالس الذكر والقرآن، ففتح الله به قلوبًا غلفًا، وأعينًا عميًا، وآذانًا صُمًا، وسلم تسليمًا كثيرًا ما ترددت على الألسن آيات الرحمن، وتليت في المحاريب هدايات الفرقان، أما بعد:

ففي صحيح مسلم من طريق الأغر أبي مسلم، أنه قال: أشهد على أبي هريرة وأبي سعيد الخدري أنهما شهدا على النبي ﷺ أنه قال: «لا يقعد قوم يذكرون الله عز وجل إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده»[(١)].

فهذه بشارة نبوية، تستحق من أتباعه ﷺ أن يتنادوا لنيل هذه الثمرات الأربع العظيمة، التي تعادل الواحدة منها الدنيا وما فيها، فكيف بها مجتمعة لمن حقق هذا المعنى: تلاوة كتاب الله وتدارس معانيه، وقد كان جبريل عليه السلام يلقى النبي ﷺ في رمضان (فيدارسه القرآن) .

ورغبةً في التعاون مع إخواننا المسلمين في إحياء هذه المجالس في المساجد والبيوت، جاءت فكرة «مجالس تدبر القرآن»، وستكون ضمن سلسة متتابعة -بمشيئة الله تعالى-؛ لتكون امتدادًا لبقية الإصدارات العلمية والتربوية التي سبق نشرها، وتهدف إلى تحقيق رؤيتنا -أن يتدبر القرآن كل من يقرؤه- في هذا المشروع العظيم.

---

(١) صحيح مسلم: (٢٧٠٠).

إننا نقدم باكورة هذه المجالس الثلاثين في «مجموعتها الأولى» -والتي حرر كثيرًا منها عدد من الأعضاء المؤسسين لمشروع تدبر- حيث نرجو الله تبارك وتعالى أن تحقق أهدافًا منها:

- أن تكون معينةً للإمام في مسجده -وخاصة في شهر رمضان- وللخطيب في منبر الجمعة، في تناول بعض القضايا المهمة -التي يحتاجها الناس- من منظور تدبري، وفق أصول علمية للتدبر.

- أن تكون مادةً مناسبة للمجالس التي يعقدها عدد كبير من الآباء مع أزواجهم وأولادهم في بيوتهم، سواء في رمضان أو غيره، تأسيًا بهدي القرآن الذي ربّى عليه أمهات المؤمنين: ﴿ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِ ﴾[1].

ـ أن تكون عونًا لمن أحب أن يقرأ مادة مختصرةً في المنتديات أو المجالس أو الاجتماعات العائلية.

وفي الختام أشكرُ إخواني في اللجنة العلمية في مركز تدبر، الذين قاموا بالعمل على إعداد هذه المجالس منذ زمن ليس بالقريب؛ لتخرج بهذه الحلة المناسبة.

وغني عن القول أن هذا العمل لا يستغني عن التقويم من قبل إخواننا وأخواتنا من أهل القرآن، فهذه المجالس منهم وإليهم، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتب/ ناصر بن سليمان العمر
naser@tadabbor.com
رئيس الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم
٢٠/ ٦/ ١٤٣٣هـ

---
(١) الأحزاب: ٣٤.



الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا، وصلى الله وسلم على مَنْ كان له القرآن منهجًا وخُلُقا، وعلى آله وأصحابه الأئمة النجباء، والهُداةِ الفضلاء، أما بعد:

فهذه باكورة سلسلةٍ جديدة تحمل اسمًا نتمنى انتشاره حسًا ومعنى في أصقاع الدنيا إنها "سلسة مجالس تدبر القرآن" ضمن سلسة متتابعة بمشيئة الله تعالى؛ لتتمم ما ابتدأناه في مركز تدبر من إصدارات علمية وتربوية ابتدأ نشرها من عام ١٤٢٩هـ، ولله الحمد والمنة، وبلغت حتى الآن (عشرون إصدارًا)، نسأل الله أن ينفع بها، ويبارك فيها.

وفي مقدمة فضيلة أ.د.ناصر العمر ـ التي سبقت هذه المقدمة ـ ما يوضح شيئًا من أهدافنا من إطلاق هذه السلسلة العلمية في تدبر القرآن، إلا أن الذي أود أن أضيفه هنا ما يلي:

أولًا: أن طبيعة هذه المجالس لا ترتبط بموسمٍ معيّن، ولا موضوع محدد، بل ستكون منوّعة بتنوّع موضوعات القرآن الكريم، وسيكون التركيز على ما يمسّ بشكل مباشر عموم المسلمين من جهة مناسباتهم الشرعية، أو مشاكلهم الاجتماعية والاقتصادية، ومحاولة علاجها في ضوء القرآن الكريم، وفق منهج علمي سليم.

ثانيًا: سيلحظُ القارئ الكريم أن هذه المجالس مختصرة في مادتها ـ على تفاوت نسبي في طولها وقصرها ـ، متنوعة في مضامينها. وهذا التنوع يعود إلى منهج القرآن في تنوع موضوعاته، واختلافِ أساليبه في بناء القِيَم، وتصحيح الأخطاء.

ثالثًا: اجتهدنا في ترتيب هذه المجالس على النحو الذي يراه القارئ الكريم، مع يقيننا بأن غيرنا قد يرى ترتيبًا آخر أجود منه، والخطب في هذا يسير إن شاء الله.

ختامًا: إننا لندعو إخواننا وأخواتنا الكرام ـ الذين شرفونا باقتناء هذا الكتاب أو غيره من كتب "تدبر" ـ ألا يبخلوا علينا بآرائهم واقتراحاتهم، ولهم منا وافر الدعاء، ومن الله جزيل الأجر والثواب.

وصلى الله وسلّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتب/ عمر بن عبدالله المقبل
omar@tadabbor.com
المستشار العلمي في مركز تدبر
وعضو هيئة التدريس بجامعة القصيم
٢١/ ٦/ ١٤٣٣هـ



المجلس الأول

أفلا نتدبّرُ القرآن! [١]

الحمد لله، والصلاة والسلام على عبدِهِ ورسولِهِ ومصطفاه، أما بعد:

فكثيرًا ما تَعْرِضُ لنا مشكلاتٌ ومُعضلات، وطريقُ كشفِها وعلاجُها في القرآن.

اتّصل أحدُ الإِخوةِ ممّن يُعالِجُ بالرُّقية، وقال: إني سمعتُ أحدَ طلابِ العلمِ يقول: إنَّ مَن واجهَتْه المشكلاتُ، فعليه بتدبُّرِ أوّلِ سورةِ الطلاق: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [٢].

يقول: فبَدَأتُ أَصِفُها للناس بَعدَ أَنْ أَرْقيَهم، وأقول لهم: تدبَّروها وطبِّقوها.

يقول: فاتّصل بي خلالَ أيام قلائلَ ثلاثةُ أشخاص، وقالوا: واللهِ لقد تغيَّرت حياتُنا، وقد ذَهَبَ ما نشكو، ولله الحمد!

---

(١) للأستاذ الدكتور ناصر بن سليمان العمر، رئيس مجلس إدارة الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم.
(٢) الطلاق ١ - ٣.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[١].

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[٢].

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾[٣].

﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[٤].

نَقِفُ مع هذه الآيات؛ لِنتدبَّرَ كلامَ اللهِ جل وعلا، ونقفُ مع دلالاته ومعانيه!

وإنّ مما يَسُرُّ ويُفْرِحُ القلبَ، الإقبالُ الكبيرُ على تلاوةِ القرآنِ، وفي شهرِ رمضان بالذات، ولكن؛ أهذا الإقبالُ على القرآنِ بألسنتِهم أم بقلوبِهم؟!

لِنتأمّل في قولِه تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[٥]. فلم يقل (فإنّه نزّله على سمعك)، ولا على بصرك، ولكن على قلبك!

فلْنواجِه أنفسَنا بهذا السؤال: هل تتجاوزُ الآياتُ -التي نتلوها ونسمعُها- أسماعَنا وأبصارَنا وألسنتَنا، إلى قلوبنا!

---

(١) محمد: ٢٤.
(٢) النساء: ٨٢.
(٣) المؤمنون: ٦٨.
(٤) ص: ٢٩.
(٥) البقرة: ٩٧.

هذا هو الأملُ المُرتجى، وبه نجتني ثمراتِ القرآن، ذلك الكتابُ العزيزُ الذي جعلَه الله نورًا للقلوب، وهدايةً للبشرية:

نـورٌ على مَـرِّ الزمان تألَّـقـا	وأضاءَ للدُّنيا طـريقًا مُشرقـا
وهُـدىً من الرَّحمن يَهدينا به	للصَّالحات وللمكارم والتُّقى
هـذا كتابُ اللهِ زادُ قلوبِنـا	وشفـاؤنا من كلِّ داءٍ أرهقا
هـذا هو القرآنُ مصدرُ عزِّنا	فَبِهِ تبـوَّأنا المكانَ الأسـمـقـا
يا حافظَ القرآنِ لستَ بحافظٍ	حتـى تكونَ لما حفظتَ مُطبِّقا

فينبغي أنْ تكونَ غايتُنا من تلاوةِ القرآنِ وسماعِه، هي التدبّرُ؛ وفرع عنه العمل!

إنَّ الله عز وجل نعى على المنافقين فقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾، ونعى على الكفار فقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾؟!

فهذا استفهامٌ إنكاريٌّ، ومعناه: لو كانوا يتدبّرون القرآنَ، لَما وقعوا فيما هم واقعون فيه من الضلال، فإذا كان القرآنُ يَنْعى على الكفارِ والمنافقين عدمَ تدبُّرِهم للقرآن، فعوامُّ المسلمين ليسوا أقلَّ من الكفارِ والمنافقين فَهْمًا وقدرةً على التدبر؟!

إذن، التدبُّرُ يكونُ: للكبيرِ والصغيرِ، للذكرِ وللأنثى، للعالِمِ وللعامي، فكلُّ مَن يفهمُ لغةَ الخِطابِ ثم يقرأُ آياتِ وعدٍ أو وعيدٍ يَفهمُ إلى ما تَرْمي إجمالًا، وإنْ لم يُدركْ معاني بعضِ الألفاظ، أو تفاصيلَ ما تضمّنتْهُ مِن الأحكام، فإنْ هو انزَجَرَ للزواجرِ عند سماعِ آياتِ الوعيد، وانبعثَ لفعلِ الخيراتِ والفضائلِ عند سماعِ آياتِ الوعد، فله مِن التدبُّر حظٌّ وقدرٌ يُحمَدُ عليه بحسبه.

وحقيقةُ التدبُّر: هو النَّظَرُ والتفكُّرُ المؤدِّي للعيشِ مع دلالاتِ القرآن، فإنَّ القرآنَ مقاصدُه جليّة، وغاياتُه واضحة، بدءً من تقريرِ التوحيدِ ونبذِ الشرك، إلى آخرِ خَصْلةٍ من خِصال الخير، والعكسُ صحيح!

فهل نحن نتدبّرُ القرآنَ عند تلاوتِنا له وسماعِنا إيّاه، أم أنّ حالَنا قد صارتْ كحالِ بعضِ أهلِ الكتابِ الذين قال اللهُ فيهم: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[1] أي: أحاديث يقولونها ويَكذِبون فيها، كما ذكر المفسرون[2].

اتَّصَلَ عليَّ أحدُ الإخوةِ في يومٍ ما، وقال لي: أَمَامي مشكلةٌ كبرى في حياتي، أنا على مُفتَرَق طُرُق، أَنقِذْني، ساعِدْني!

---

(١) البقرة: ٧٨.
(٢) انظر تفسير ابن جرير: ٢/ ١٥٧، وفي معنى الآية أقوال.

فقلتُ له: اقرأْ هذه الآيةَ وتدبَّرْها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾[1]. فما هي إلا لحظاتٌ ويُرسِلُ لي رسالةً عجيبة، قالَ فيها: سبحانَ الله! النورُ بين يديَّ ولم أَنتبِهْ له!

أنا أَحفظُ أكثرَ القرآن، ومنه هذه السورةُ؛ سورةُ الأنفال، فكأنِّي لأوّل مرةً أقرؤها!

فقلتُ له: هل تحتاجُ إلى أحدٍ بعد هذه الآية؟

فردَّ عليَّ: لا والله، لا أحتاجُ إلى أحدٍ بعدها، والله إني أعيشُ أسعدَ أيامِ حياتي!

أيها المؤمنون: إنّ تدبّرَ القرآنِ ضرورةٌ؛ لأنه مصدرُ عِزِّنا! ولأنه مَنهجُ النبيِّ محمد ﷺ، وكما قال الإمامُ مالكٌ، فإنه: «لن يَصلُحَ آخرُ هذه الأمة، إلا بما صلَحَ به أوّلُها»[2]، وهل صَلَحَ أوّلها إلا بالكتابِ والسنة، فالتدبُّر في معانيهما هو السبيلُ للإصلاحِ بهما، وهو السبيلُ لربْط واقعِ الأمة بالكتاب والسنة؟!

وكما يقول الرسول ﷺ: «تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ»[3].

---

(١) الأنفال: ٢٩.

(٢) ذكر القاضي عياض في كتاب (الشِّفا بتعريف حقوق المصطفى: ٢/ ٨٨) نصًّا للإمام مالك نقله عن كتاب (المبسوط) للقاضي إسماعيل بن إسحاق الجهضميّ المالكي (ت ٢٨٢هـ)، يتضمّن هذه العبارة بهذه الصيغة: «وَلَا يُصْلِحُ آخرَ هذه الأمة إلا ما أصْلَحَ أَوَّلَهَا».

(٣) الموطأ (٣٣٣٨).

ولا تمسُّك بلا فَهْمٍ وتدبّرٍ وهما سبيلُ الفقهِ في الدين، وقد دعا النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما أنْ يُعلِّمه التأويل، وأن يُفقِّهَه في الدين[1]، فكان حَبْرَ الأمةِ وترجمانَ القرآن!

وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «من يُرِدِ اللهُ به خيرًا يُفَقِّه في الدين»[2]، وتدبُّرُ القرآنِ من أَعظمِ سبلِ الفقهِ في الدين.

ولْنتأمَّل ـ أيها المؤمنون ـ هذه الآياتِ جيدًا: يقول الله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾[3]، ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾[4]، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[5]!

ووالله لن تَتحقّقَ هذه الطمأنينةُ وهذا التثبيتُ وهذه الرحمةُ وهذا الشفاء، إلا بالاستماعِ والإنصاتِ والتدبرِ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[6].

---

(١) صح ذلك في مسند أحمد (٣٠٣٣)، وغيره.
(٢) متفق عليه: البخاري (٣١١٦)، ومسلم (١٠٣٧).
(٣) الرعد: ٢٨.
(٤) هود: ١٢٠..
(٥) الإسراء: ٨٢.
(٦) الأعراف: ٢٠٤.

وتدبُّرُ القرآنِ مِن أعظمِ الوسائلِ في بيانِ الفرقانِ بين الحقِ والباطل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[(١)].

ثم أين نحنُ مِن نداءِ الرسولِ ﷺ لربِّه، وشكواه: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾[(٢)]، وهذا وإنْ كان في المشركين المكذبين، غيرَ أنه يُعرِّض بمَن أَعرضَ عن تدبُّرِ القرآنِ في هذه الأمة!

وقد ذكر ابنُ القيِّمِ -رحمه الله- أنَّ مِنْ هَجْرِ القرآنِ: هجرَ تدبُّرِه، وهجرَ الاستشفاء به[(٣)].

فيا أيها المؤمنُ المحبُّ لكتابِ ربه، إنْ أردتَ التنعُّمَ بالتدبر، فاحذر من العَجَلةِ في التلاوة، وقد قال بعضُ السلف: كيف يَرِقُّ قلبُك، وأنتَ هِمّتُك في آخرِ السورة!.

فعليك أنْ تتدبَّرَ القرآنَ عند قراءتِك له، وأنْ تَتَرسَّل، وأنْ تخشع، وتخضع! وهكذا كان النّبي ﷺ ؛ ولاسيّما حينما يلقاه جبريلُ في رمضانَ فيُدارسُه القرآن[(٤)].

---

(١) الأنفال: ٢٩.
(٢) الفرقان: ٣٠.
(٣) الفوائد: ص٨٢.
(٤) صحيح البخاريّ (٦).

وفي الصحيح: «وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمِ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ»(١).

فتدبَّروا القرآنَ وتدارسوه بينكم فتلك سُنةُ نبيكم!

اللهم اجعلنا لكتابِك من التالين، وبه من العاملين، ولآياتِه من المتدبرين، واغفر اللهم لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



---

(١) صحيح مسلم (٢٦٩٩).



المجلس الثاني

القرآن من دلائل صدق النبوة

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على عبدِه ورسولِه ومصطفاه، أما بعد:

فإنّ أعداءَ الإسلامِ لما رأوا قوّةَ هذا الدين، وصدقَ رسولِه، وعظيمَ آيتِه التي جاءَ بها من عندِ الله -وهي القرآنُ الكريم-، سلكوا في سبيلِ الصدِّ عنه أساليبَ شتى، وألوانًا من الغزوِ الفكري، بغيةَ التشكيكِ في الرسولِ والرسالة.

وهذا التشكيكُ والتشويشُ ليس جديدًا، بل هو قديمٌ قِدَمَ الرسالة، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾[1].

ولقد كان تدبُّرُ العلماءِ لهذا القرآنِ العظيم، من أعظمِ الأسلحةِ التي قاوَموا بها تشكيكَ المشككين، وتشويشَ المغرِضين، وانتقاصَ الجاهلين لمقامِ رسولِ ربِّ العالمين، وعلى رأسِ أولئك العلماء: الصحابةُ رضوان الله عليهم.

ومن ذلك: أنهم رأوا أنَّ ثمةَ آياتٍ لا يمكن أن يَنقُلَها إلا صادق؛ لأنها

---

(١) فصلت: ٢٦.

تتضمنُ عِتابًا إلهيًا له ﷺ، وبهذا استدلَّتْ أمُّ المؤمنين عائشةُ -رضي الله عنها- على ذلك، فقالت: ولو كان محمدٌ ﷺ كاتمًا شيئًا مما أُنزِلَ عليه لكَتَمَ هذه الآية: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾[(١)] .[(٢)]

ومِن تلك الدلائلِ التي تزيدُ المؤمنَ يقينًا، تدبُّرُ بعضِ الأحداثِ التي نَزَلَ فيها القرآن، ومن ذلك[(٣)]:

١ ـ في قصةِ الإِفْك: ألَمْ يرجف المنافقون بحديثِ الإفك عن زوجه عائشةَ -رضي الله عنها-، وأبطأ الوحي، وطالَ الأمرُ والناسُ يخوضون، حتى بَلَغت القلوبُ الحناجر، وهو ﷺ لا يستطيعُ إلّا أنْ يقولَ بكلِّ تحفُّظٍ واحتراسٍ: «إني لا أعلمُ عنها إلا خيرًا»[(٤)]، ثم إنه بَعْدَ أن بَذَل جُهدَه في التحرِّي والسؤالِ واستشارةِ الأصحاب، ومضى شهرٌ بأكملِه والكل يقولون: ما علمنا عليها مِن سوء، لم يَزِدْ على أنْ قال لها آخرَ الأمر: «يا عائشة، أَمَا إنّه بَلَغني كذا وكذا، فإنْ كنتِ بريئةً فسيبرِّئكِ الله، وإنْ كنتِ ألَمْتِ بذنبٍ فاستغفري الله»[(٥)].

---

(١) الأحزاب: ٣٧.
(٢) رواه مسلم (١٧٧).
(٣) من كتاب «النبأ العظيم» للشيخ عبدالله دراز رحمه الله، ص: (٢٠ - ٢٨)، بتصرف واختصار يسيرين.
(٤) البخاري (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٧٠).
(٥) المصدر السابق.

هذا كلامُه بوحيِ ضميرِه، وهو كما نرى كلام البشر الذي لا يعلم الغيب، وكلام الصدّيْق المتثبّت الذي لا يتبع الظن، ولا يقولُ ما ليس له به علم، على أنه لم يغادرْ مكانَه بعدَ أنْ قال هذه الكلماتِ حتى نَزلَ صدرُ سورةِ النور مُعلنًا براءتها، ومُصدِرًا الحكمَ المُبْرَمَ بشرفِها وطهارتِها.

والسؤال ـ أيها المؤمنون: ماذا كان يمنعُه -لو أنّ أَمْرَ القرآنِ إليه- أنْ يتقوَّلَ هذه الكلمةَ الحاسمةَ مِن قَبْل؛ لِيَحميَ بها عرضَه، ويَذُبَّ بها عن عرينِه، ويَنسبَها إلى الوحيِ السماوي، لتنقطعَ ألسنةُ المتخرِّصين؟! ولكنه ﷺ ما كان لِيذرَ الكذبَ على الناسِ ويَكذِبَ على الله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾[1].

٢ ـ ومِن المواضعِ التي ردَّ بها العلماءُ على المشككين في صحةِ هذا القرآن:

مخالفةُ القرآنِ لطبعِ الرسول -ﷺ- وعتابُه الشديدُ له في المسائلِ المباحة:

وأُخرى كان يجيئُه القولُ فيها على غيرِ ما يحبُّه ويهواه، فيخطِّئُه في الرأيِ يراه، ويأذنُ له في الشيءِ لا يميلُ إليه، فإذا تلبَّثَ فيه يسيرًا تلقّاه القرآنُ بالعتاب القاسي، والنَّقدِ المرّ، حتى في أقلِّ الأشياءِ خطَرًا، فتأمَّلوا هذه الآيات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾[2]، ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا

---

(١) الحاقة: ٤٤ - ٤٧.

(٢) التحريم: ١.

ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُ﴾، ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾[(١)]، ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾[(٢)]، ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٧﴾ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٦٨﴾﴾[(٣)]، ﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ﴾[(٤)]!

أرأيتَ لو كانتْ هذه التقريعاتُ المؤلمةُ صادرةً عن وُجدانِه، معبرةً عن ندمِهِ ووخْزِ ضميرِه؛ حين بدا له خلافُ ما فَرَطَ من رأيِه، أكان يُعلنُها عن نفسِه بهذا التهويلِ والتشنيع؟ ألم يكن له في السكوتِ عنها سِترٌ على نفسه، واستبقاءٌ لحرمةِ آرائه؟ بلى؛ إنّ هذا القرآنَ لو كانَ يفيضُ عن وجدانِه لكان يستطيعُ عند الحاجةِ أن يَكْتُمَ شيئًا من ذلك الوجدان، ولو كان كاتمًا شيئًا لكَتَمَ أمثالَ هذه الآيات، ولكنه الوحي لا يستطيعُ كتمانَه: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ﴾[(٥)] ﷺ.

---

(١) التوبة: ٤٣.
(٢) التوبة: ١١٣.
(٣) الأنفال: ٦٧ – ٦٨.
(٤) عبس: ٥ – ١٠.
(٥) التكوير: ٢٤.

وتأمّل آيةَ الأنفالِ المذكورة -﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ... ﴾ الآية - تجد فيها ظاهرةً عجيبة، فإنها لم تَنْزِلْ إلا بعدَ إطلاقِ أسارى بدر، وقبولِ الفداء منهم، وقد بُدِئتْ بالتخطئةِ والاستنكارِ لهذه الفِعلة، ثم لم تلبثْ أنْ خُتِمتْ بإقرارِها وتطبيبِ النفوسِ بها، بل صارتْ هذه السابقةُ التي وقعَ التأنيبُ عليها هي القاعدةُ لما جاء بعدها، فهل الحالُ النفسيّةُ التي يصدُرُ عنها أوّلَ هذا الكلام -لو كان عن النفس مصدُرُه- يمكن أنْ يَصدُرَ عنها آخرُه؟ ولمّا تَمْضِ بينهما فترةٌ تفصلُ بين زمجَرَةِ الغضبِ والندم، وبين ابتسامةِ الرضا والاستحسان؟ كلا [١].

وهكذا كلما دَرَسْتَ مواقفَ الرسول ﷺ من القرآنِ في هذه المواطنِ أو غيرِها، تَجَلَّى لك فيها معنى العبوديةِ الخاضعةِ، ومعنى البشريةِ الرحيمةِ الرقيقة؛ وتجلى لك في مقابل ذلك مِن جانبِ القرآن، معنى القوةِ التي لا تَتَحكَّمُ فيها البواعثُ والأغراض، بل تَصْدَعُ بالبيانِ فُرقانًا بين الحق والباطل،

---

(١) وأنت لو نظرتَ في هذه المواقف التي عُوتِب فيها النبي صلى الله عليه وسلم، لوجدتها تنحصرُ في شيء واحد، وهو أنه عليه الصلاة السلام كان إذا ترجّح بين أمرين ولم يجد فيهما إنما اختار أقربهما إلى رحمةِ أهلِه، وهدايةِ قومه، وتأليفِ خصمِه، وأبعدِهما عن الغلظةِ والجفاء، وعن إثارةِ الشُّبَهِ في دين الله، لم يكن بين يديه نصٌّ فخالفَه كفاحًا، أو جاوزَه خطأً ونسيانًا، بل هو مجتهدٌ، بَذلَ وسعه في النظر، ورأى نفسَه مخيرًا فتخير، هبه مجتهدًا أخطأ باختيار خلافِ الأفضل، أليس معذورًا ومأجورًا؟ على أن الذي اختارَه كان هو خير ما يختاره ذو حكمة بشرية، وإنما نبّهه القرآنُ إلى ما هو أرجح في ميزانِ الحكمة الإلهية، هل تُرى في ذلك ذنبًا يستوجب عند العقلِ هذا التأنيب والتثريب؟ أم هو مقامُ الربوبية ومقامُ العبودية، وسُنّة العروج بالحبيب في معارج التعليم والتأديب؟!.

وميزانًا للخبيث والطيب، أَحَبَّ ُالناسُ أم كرهوا، ورضوا أم سخطوا، آمنوا أم كفروا؛ إذ لا تزيدُها طاعةُ الطائعين، ولا تنقصُها معصيةُ العاصين. فترى بين المقامين ما بينهما. وشَتّان ما بين سيِّدٍ ومَسُود، وعابدٍ ومَعبُود.

فاحمدوا الله تعالى -أيها المؤمنون- الذي هداكم لاتباع هذا النبي الكريم، الذي تَطَابَقت الأدلةُ على صدقِه في نفسِه، وصدقِه فيما بَلّغَ عن ربّه.

اللهم فكما هديتنا لدينِه، فثبتْنا عليه حتى نلقاك، واغفر اللهم لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.





المجلس الثالث

من أسرار الاستعاذة [(١)]

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على عبدِهِ ورسولِهِ ومصطفاه، أما بعد:

فإنّ اللهَ تعالى شَرَعَ لعبادِهِ أنْ يَستعيذوا عندَ إرادةِ البدءِ بتلاوةِ هذا القرآنِ العظيم، فقال سبحانه: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾[(٢)]!

فدعونا ـ أيها المؤمنون ـ نتأمّل في بعضِ أسرارِ هذا الأمرِ الإلهي!

إنّ العبدَ عندما يَستفتِحُ لحظاتِ الاستدرارِ لنورِ الله العظيم، تلاوةً لكتابِهِ الكريم، فإنه يخشى أنْ يسطوَ الشيطانُ على قناةِ الاتصالِ بوجدانِه فيجعلُه من الغافلين!

والشيطانُ كلُّ مُتمرِّدٍ على اللهِ من الجنِّ والإنس، وإبليسُ اللعينُ رأسُ الشياطينِ في العالمين، وهو عدوٌّ مبين! فقد تعهَّدَ لربِّ العالمين بإفسادِ الأرضِ

---

(١) مجالس القرآن، للدكتور فريد الأنصاري: ص: (١١٩) وما بعدها، بتصرف يسير.
(٢) النحل: ٩٧.

وإضلالِ أهلِها أجميعن! ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾[1].

وقد طَرَدَ اللهُ -جَلَّ جلالُه- إبليسَ من سماواته، ورَجَمَهُ بالشُّهُبِ الثواقب! فتَفَرَّغَ اللعينُ لهذا الكيدِ العظيم! لا يدعُ للخيرِ بدايةً إلا أَرْبَكَها بقاصفِ الوساوسِ ونيرانِ الفِتن! فجَعَلَ الرحمنُ «الاستعاذةَ» لعبادِه المؤمنين، نجاةً وأمانًا مِن كلِّ شيطانٍ رجيم. وماذا أعظمُ مِن جِوارِ اللهِ الواحدِ القهارِ سلامًا للمؤمنين؟

ومن هنا كانت صيغةُ الاستعاذةِ راجعةً إلى معنى قولِ القائل: أستجيرُ باللهِ وحدَه مِن الشيطانِ الملعون، المطرودِ من رحمةِ الله، وأَعتصمُ به تعالى مِن أنْ يَضُرَّني في ديني، أو يَصُدَّني عن حقٍّ من حقوقِ ربي!

فإذا قالها الإنسانُ بين يدي تلاوة، أو صلاة، أو نحوِ هذا؛ استحضَرَ دلالةَ الاستعاذةِ قبل بدء ذاك العمل، واجتهدَ في تطهيرِ مداخلِ نفسه تطهيرًا من كلِّ طَرْقٍ شيطانيٍّ خفي، مُستجيرًا بربِّه القوي العزيز: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم!) فتُولِّي الشياطينُ الأدبارَ هاربةً في متاهاتِ ضَلالِها، وظُلُماتِ كيدِها، بعيدًا عن شلّالِ النورِ الذي تَدفَّقَ على القارئِ بمجرَّدِ طلبِ الغَوثِ والأمانِ من ربِّ العالمين!

---

(١) الحجر: ٤٠ - ٤٢.

والاستعاذةُ بهذه الصيغةِ ليستْ آيةً من كتابِ الله، لكنْ رسولُ اللهِ ﷺ كان يقرؤها؛ استجابةً لأمرِ اللهِ تعالى في القرآن: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ فهي أمرٌ ربانيٌّ وسنةٌ نبوية.

وهذه الآيةُ مع الصيغةِ النبويةِ في الاستعاذة، كلاهما مُتضمِّنٌ لخمسِ رسالات، لا بُدَّ للسائرِ إلى اللهِ - جَلَّ ثناؤه - عَبْرَ مِعْرَاجِ القرآنِ الكريم من تَلَقِّيها جميعًا، الواحدة تِلوَ الأخرى، وإلا فلا وصولَ ولا قَبولَ:

- الرسالة الأولى:

أنه لا بَدْءَ في طريقِ الله، ولا فَتْحَ للعبدِ الطَّارِقِ أبوابَ مَعَارِجِ القرآن؛ إلا بإعلانِ الولاءِ للهِ الحق، والانتظامِ في صفِّ العابدين له وحده دون سواه! وإعلانِ معاداة الشيطانِ بما هو عدوٌّ لله رب العالمين، والتبرؤِ منه ومن حزبه وأتباعِه! وإنما الاستعاذةُ فتحُ عينِ القلبِ على بصيرةٍ قرآنيةٍ عُظمى، لا يجوزُ نسيانُها أبدًا! هي قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾[1] إنّ الاستعاذةَ ليستْ مجرَّدَ عباراتٍ تُلْقَى في الهواءِ فحسب، ولكنّها اتخاذُ موقفٍ! فتَدَبَّرْ!

---

(١) فاطر: ٦.

- **الرسالة الثانية:**

في أنّه لا قوةَ للعبدِ على الانطلاقِ وبدءِ السيرِ إلى اللهِ والتعرُّف إليه تعالى؛ إلا بالاحتماءِ به، والالتجاءِ إليهِ ابتداءً! فلا وصولَ إليهِ بمجرَّدِ الجُهدِ الخاصِ والكسبِ الذاتي، بل لا بُدّ مِن استدرارِ توفيقِه ورحمتِه، فالهدايةُ والتوفيقُ والسداد، كلُّ ذلك إنما هو بيدِهِ وحدَه جلّ علاه! وذلك من صَميمِ التوحيدِ والإخلاص.

وتحقيقُ معنى الاستعاذةِ في النفس تَخَلُّقٌ عميقٌ بهذا المعنى العظيم، ولا صحةَ لعملٍ - من حيثُ القصدُ التعبديُّ الخالص - إلا باستدراجِ هذا الأصلِ الإيماني في عمقِ القلب، نيةً تعبدية خالصةً، لتخليصِ العملِ وتصفيتِه مِن كلِّ مَنٍّ، ومِنْ كُلِّ حَوْلٍ وقوةٍ، إلا ما كان باللهِ وله، وحدَه دونَ سواه!

- **الرسالة الثالثة:**

في أنّ التعبدَ بالقرآنِ تلاوةً، وتزكيةً، وتعلُّمًا وتعليمًا، لن يؤتيَ ثمارَه، ولن يُكشَفَ عن أنوارِه لعبدٍ؛ إلا إذا تبرَّأَ مِن كلِّ حولٍ وقوة، وقدَّم بين يدي تلاوتِه علامةَ الافتقارِ إلى الله الغنيِّ الحميد، وهي الاستعاذةُ، ولذلك ليس كلُّ قارئٍ للقرآنِ بقارئ! ولا كلُّ تَالٍ له بِتَالٍ! وإنما القارئُ والتالي له هو مَن يتلوه حقَّ تلاوتِه. والتحققُ بمقاصدِ الاستعاذةِ شرطٌ من شروطِ التلاوةِ الحق! فمَن أخطأَ حقيقتَها أو استهانَ بها عَدِمَ الثمرة، وحُرِمَ النور! فكم مِن قارئٍ يقرأُ القرآنَ وهو عليه عَمًى! والعياذُ بالله! ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾[1].

---

(1) فصلت: ٤٤.

- الرسالة الرابعة:

في أنّ الشيطانَ قد يتدخَّلُ فيما يقعُ بقلبِ العبدِ مِن آثارِ التلاوة -وهو مِن أشدِّ الكيد- فيُفْسِد الفهمَ، أو يُفسِد نيةَ الافتقارِ والتعبدِ عند التلقّي عن الله، أو يَصرِف البالَ عن مشاهدةِ نورِ الهداية؛ فلا يخرُجُ العبدُ مِن تلاوتِه بشيء، وربما خرَجَ بضلالٍ وحَيرةٍ والعياذُ بالله، كما حَصَل لأهلِ الضّلالةِ قديماً وحديثًا عند قراءةِ القرآن! وذلك نحو ما في قولِه ﷺ: «سيخرجُ في آخرِ الزمانِ قومٌ أحداثُ الأسنان، سفهاءُ الأحلام، يقولون من خير قولِ البرية، يقرؤون القرآنَ لا يُجاوِزُ حناجِرَهم! يمرقون من الدينِ كما يمرُقُ السهمُ من الرَّمِيَّةِ!»[1]، فلا ينجو المؤمنُ مِن هذا وذاك إلا بطلبِ الغوثِ من اللهِ استعاذةً به تعالى؛ لِتصِلَ رسالاتِ القرآنِ إلى قلبِه صافيةً خالصةً! لا أَثَرَ فيها لإلقاءات الشيطان فَهْماً وقصدًا.

- الرسالة الخامسة:

في أنّ العبدَ المستجيرَ آمِنٌ مِن كلِّ ذلك وغيرِه بإذنِ الله؛ لأنه استجارَ بعظيم! وهو -جل وعلا- لا يُضَامُ جارُه!

---

(١) رواه البخاري (٦٩٣٠)، مسلم (١٠٦٦).

فالهُدَى المستنبَطُ من «الاستعاذةِ» راجعٌ إلى كونها تعبيرًا عن وَصْفٍ نفسيٍّ، وَوِجْدَانٍ إيماني، يقعُ بقلبِ العبدِ قبلَ أنْ يقعَ بلسانِه، والتحقُّقُ به هو أوّل الطريق، وتلك هي المنـزلةُ الأولى مِن منازلِ الإيمان، لمن رامَ الإقلاعَ في طريقِ التعرُّفِ إلى الله.

إنها كلمةُ الأدبِ بإعلانِ الافتقارِ الكاملِ إلى اللهِ الغنيِّ الحميدِ جل علاه، والتبرؤِ مِن كلِّ حولٍ وقوةٍ في العلمِ والعمل، إلا ما كان مَنًّا كريمًا وفضلًا جميلًا مِن اللهِ وحده! فلا انطلاقَ بغيرِ التخلُّقِ بوصفِها والتحققِ بمقامِها. فإنْ تَفْعَلْ بصدقٍ وإخلاصٍ فأبشِرْ! إنك آمِنٌ بإذنِ الله، محروسٌ بجنودِه جلَّ عُلاه، فَانْعَمْ مُطْمَئِنًّا بِجِوَارِهِ تعالى وحِماه!

أما كيف نُحقِّقُ أثرَ هذه الاستعاذةِ عمليًّا؟

فإنَّ البدايةَ تكونُ من مُساءلةِ النفس بصدق: ماذا تريد؟ ماذا تُريدُ بما هي مُقبلةٌ عليه مِن قِراءةٍ أو عبادة؟ أَحقًّا تريدُ الوصولَ إلى الله؟ أَحَقًّا تريدُ القيامَ بحقِّهِ العظيمِ جل علاه؟ والدخولَ في القيامِ بوظيفةِ الخدمةِ لدينه؟ وحملَ ميثاقِ عهدِه وأمانتِه، وتَلَقِّي رسالاتِ هَدْيِهِ وقرآنِه؟ واستدرار مددِه وأنوارِه؟ أم أنها تقرأُ وكفى؟! بلا قصدٍ تعبُّدي، إلا قَصْدَ التَّعَوُّدِ والتسميع، وما دون ذلك مِن مُبطلاتِ الأعمالِ ومحبطاتِها؟!

حتى إذا صارت لك حقائقُ الاستعاذةِ الإيمانيةِ خُلُقًا وطَبْعًا، أصبحَ معناها بقلبِكَ زادًا إيمانيا، تجدُه جاهزًا - إن شاء الله - متى استدعيتَه بقراءتِها، عندَ كلِّ تلاوة، وعندَ كلِّ تصرُّفٍ تعبديٍّ أنَّى كان؛ فأَبْشِرْ!

ثم إنّ أوّلَ ما يبعثُ النفسَ على الانطلاقِ السليم - بعد ذلك - هو تخليصُ الوجهةِ وتوحيدِ القبلة!

ومما يُعينُ على ذلك: تَذَكُّرُ أحوالِ السابقين الأولين كيف سَبَقوا؟! وتشاهد غبطة الواصلين الصادقين كيف وصلوا؟! لقد قرؤوا القرآنَ بكمالِ الافتقارِ إلى اللهِ وتَلَقِّي رسالاتِه هُدًى وشفاءً لقلوبهم؛ فانفتحت لهم مَعَارِجُ الروح، وارتقوا في الدنيا وفي الآخرة! وتلك مَعَارِجُهُمْ لم تزلْ مفتوحةَ الأبواب؛ فاقْرَأْ يَا صَاحِ وارْتَقِ!

فيا نفسي المغرورة.. إلى متى تبقين هكذا شاردةً عن بابِ الله؟ إلى متى وأنت تستجيبين لأهوائِك؟ تَفِرِّين إلى شهواتِكِ ومَلَذّاتِك؟ وتَتَلفعين بذاتِكِ وأنانيتك؟ وما أنتِ إلا قطرةٌ من روحٍ في جَرَّةٍ من طين! متى انكسرتْ سالت! آهٍ يا نفسُ! هذه مَسَامُّكِ الصغيرة تتسعُ من حينٍ لآخر؛ فيتسرَّبُ منها الشيطانُ إلى نفسك لِيَعيثَ فسادًا داخلَ خواطرِكِ وأشواقِك! فيَحُولَ دون انطلاقِ الروح في رحلةِ السيرِ الكوني إلى الله!

عجبًا كيف تصبرين على هذه الحال! وها كلُّ الطيورِ قد أَعلنتْ توبتَها، وانطلقت تضربُ بأجنحتِها بعيدًا في رحلة المحبين؟! فَفِرِّي إلى الله مستعيذةً بالله! وأعلني الافتقارَ الكاملَ له وحدَه جلَّ عُلاه؛ عسى أن تكوني من أهلِ النجاةِ والفتحِ المبين! ذلك قولُ الحق ذي القوة المتين: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾[1]. واجْأَرِي إلى مولاكِ باستغاثةِ الفقراءِ الصادقين: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم!».

اللهم أَعذِنا من الشيطانِ الرجيم، ومِن كلِّ ما يحولُ بيننا وبين فهمِ كتابِك العظيم.

اللهم اغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



(١) الذاريات: ٥٠.



المجلس الرابع

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[1]

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على عبدِهِ ورسولِهِ ومصطفاه، أما بعد:

فإنّ سورةَ الفاتحةِ أعظمُ سورةٍ في القرآن، وأجمعُ آياتِ هذه السورةِ لمعاني الدينِ وحقائقِ الملةِ قولُه تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[2]، إذ يعترفُ العبدُ عند تلاوتِها بأمرين عظيمين:

الأول: أنّه عبدٌ للهِ لا يعبُدُ أحدًا سواه، ولا يتوجَّه برغبتِه ورهبتِه ومحبتِه ورجائِه وصلاتِه ونُسُكِه وجميعِ عباداتِه إلا للهِ وحدَه، لا يَشرِكُ به شيئًا.

والثاني: أنّه لا يَستعينُ على قضاءِ حوائجِه، وكَشْفِ كُرَبِه وتفريجِ همومِه، وإجابةِ دعائِه وتحقيقِ آمالِه ورفعِ آلامِه، إلا بالله، فهو القادرُ وحدَه على كلِّ شيء، وهو المستعان على كلِّ شأن، وهو بهذا يَعترِفُ لربِّه بالقوَّةِ المطلقة

---

(١) للدكتور محمد بن عبد العزيز الخضيري، عضو الهيئة العالمية لتدبر القرآن، وعضو هيئة التدريس بجامعة الملك سعود.

(٢) الفاتحة: ٥.

والقدرةِ التامة، والعلمِ الكاملِ والرحمةِ الواسعةِ والربوبيةِ الشاملة، والفضلِ والمُلْكِ والإنعام، جَل جَلالُه وتَقدَّستْ أسماؤه.

وهذه الآيةُ على قِلَّةِ ألفاظِها، فإنّها تَضَمَّنت معانيَ جليلةً وحقائقَ عالية، تَستَحِقُّ أنْ يَتَوَقَّفَ المسلمُ عندها مَلِيًّا.

فمِن ذلك: أنّ العبادةَ قُدِّمَت فيها على الاستعانة؛ لأنَّ العبادةَ حقُّ الله، والاستعانةَ حقُّ المخلوق، وحقُّ اللهِ -بلا شك- مُقدَّمٌ على حقِّ المخلوق، وهي بهذا تُعلِّمُنا الأدبَ مع اللهِ، وتقديمَ حقِّهِ وأمرِهِ ونهيِهِ على كلِّ شيءٍ؛ اعترافًا بفضلِهِ وألوهيتِه، وإجلالًا له وخضعانًا لجَنَابِهِ.

ومن ذلك: أنّ الفعلينِ فيها جاءا بلفظِ الجمعِ (نعبد ونستعين)، ولم يقل (أعبد وأستعين)؛ تذكيرًا للمسلمِ بارتباطِه مع الجماعةِ المسلمة، وحرصِه على إيجادِها، وبُعدِهِ عن الفَردِيَّةِ والانعزال، إضافةً إلى ما فيها من التواضعِ الذي يقتضيه هذا الاعتراف، ذلك أنّه إذا ذَكَرَ عِبادتَه مع عبادةِ الجماعة، واستعانتَه مع استعانتِها؛ ارتَفَعَ مِن قلبِه الالتفاتُ إلى عبادتِه والعُجْبُ بها، فهو يقولُ بلسانِ الحالِ: أنا يا رب ليس مني عبادةٌ تَستَحِقُّ أن أَعترِفَ بها؛ لكن عبادتي مع إخواني هي مَحَلُّ اعترافي لك وتَوَسُّلي إليك، فيَسقُطُ بذلك رؤيةُ المصلي لعملِهِ، وهذا داعٍ لِقَبولِهِ عند ربه واستجابةِ دعائِه، فإنّه لا يقبلُ عملًا مِن مُعجَبٍ، ولا يَسمعُ دعاءًا مِن مُتكبِّرٍ.

ومن ذلك: أنّ تقديمَ العبادةِ في الآيةِ على الاستعانةِ وافَقَ قِسمَةَ السورةِ المذكورَ في الحديثِ القدسي: (قَسَمْتُ الصلاةَ بيني وبين عبدي نصفين)[1].

فالنصفُ الأولُ لله، والنصفُ الثاني للعبد، والسورةُ مُكَوَّنةٌ مِن سبعِ آياتٍ، تبدأُ -على الصحيح- بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2] فيكونُ ما للهِ فيها ثلاثُ آياتٍ ونصف، وما للعبدِ ثلاثُ آياتٍ ونصف.

ومن ذلك: أنّ الدِّينَ مُنقسمٌ إلى قسمين، عبادةٌ واستعانة، ولا يَكمُلُ دينُ امرئٍ حتى يقوم بهما على أكمل الوجوه. فالصلاةُ عبادةٌ واستعانة، وسؤالُ اللهِ ودعاؤه عبادةٌ واستعانة، وأفضلُ الخَلق مَن كَمَّلَهما وقام بهما على أكملِ وجهٍ وأحسنِ حال، وشَرُّ الخَلْق مَن تَرَكَ عبادةَ اللهِ، وتَرَكَ الاستعانةَ به على قضاءِ الحوائجِ، وكَشفِ الكُرَبِ، وتَيسيرِ الأمورِ، وشرحِ الصدور.

هذان صنفان وبقي صنفان:

أولهما: مَن قَامَ بالعبوديةِ وقَصَّرَ في الاستعانة، وهذا يحصُلُ لبعضِ الصالحين، فهو يُؤدِّي المأمورات ويترك المنهيات، ويَفعلُ ذلك بانتظام، لكنه مُقلٌّ من الاستعانةِ باللهِ على قضاءِ حاجتِه وعبادةِ ربه، وقد حُرِم بذلك حَظًّا عظيماً مِن الافتقارِ إلى اللهِ، واللجأِ إليه، والانطراح بين يديه، وعَرْضِ حاجتِه على مَن يفرحُ بقضائِها، ويَبتَلي عبادَه بأنواعِ البلاءِ ليُقبِلوا بها على ربهم، مُتضَرِّعةً

---

(١) رواه مسلم عن أبي هريرة -رضي الله عنه-: (٣٩٥).
(٢) الفاتحة: ٢.

قلوبُهم، وَجِلةً أفئدتُهم، فتَسكُن بمناجاةِ السميعِ العليمِ الرحيم، تَلَذُّ بدعائِه، وتَأنسُ بِعَرْضِ حاجتِها عليه.

وهذا الصنفُ يقعُ منه التقصيرُ في الاستعانةِ جَهلًا بمقام الاستعانة، الذي لا يَكمُلُ إيمانُ عبدٍ إلا به، وغفلةً عن الاقتداءِ بالأنبياءِ الذين يحرصون على الاستعانة بربهم، والالتجاء إليه، ويَعرضون حوائجَهم على ربهم في كل شؤون حياتهم، لا يُقصِّرون في ذلك، وتأمَّلْ حالَ كليم الرحمن، عندما قَتَلَ القِبطيَّ، وجاء الرجُلُ مِن أقصى المدينةِ يحذِّرُه، قال الله: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[1].

ثم لمّا وَرَدَ ماء مدينَ، وسَقَى للفتاتينِ بلا أَجْرٍ: ﴿تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[2].

وهذا سيِّدُ ولدِ آدم – ﷺ– عندما التقى الجمعانِ في بدر، رَفعَ كَفَّيهِ إلى السماءِ يَسألُ ربَّه ويناجيه، ويدعوه دعاءَ المُفتقرِ إلى الفَرَجِ مِن ربِّه الكريم، ويُناشِدُه قائلًا: «اللهم أَنجِزْ لي ما وعدتني، اللهم إنّك إنْ تهلِك هذه العِصابةَ مِن أهلِ الإسلامِ لا تُعبدُ في الأرض»[3]، حتى أَشْفَقَ أبو بكرٍ عليه مِن شِدَّة تَضُرُّعِهِ وقال له: «يا نبيَّ اللهِ كفاك مناشدتك ربك، فإنّه سينجزُ لك ما وَعَدَك»[4].

---

(١) القصص: ٢١ – ٢٢.
(٢) القصص: ٢٤.
(٣) رواه مسلم (١٧٦٣).
(٤) المصدر السابق.

لقد كان هؤلاء الأنبياءُ قائمين بعبادةِ ربِّهم على أَكْملِ الوجوه، ولم يمنعْهم ذلك أو يحمِلْهم على أن لا يستعينوا بالله، ويلتجئوا إليه في كشفِ الكُرَب، وقضاءِ الحوائج، لِعِلْمِهم بأنّ ذلك مِن تمامِ العبوديةِ، ومما يحبُّه الربُّ مِن عبادِه.

وثاني الصنفين: مَن يَستَعِينُ باللهِ في أمورِه، وتحصيلِ حاجتِه ولو كانت محرمة، لكنّه مُقصِّرٌ في العبادة، أو تاركٌ لها بالكُلِّية، وهذا موجودٌ في بعضِ العُصاةِ المنحرفين، وعُتاةِ المجرمين، فتَجِدُهم يدعون الله كثيرًا لقضاءِ حوائجِهم -حلالًا كانت أم حرامًا-، لكنّهم لا يَرعَون أمْرَ اللهِ ولا نهيَه، ولا يُطيعُون اللهَ ولا رسولَه ﷺ في قليلٍ أو كثير.

فهؤلاء أصنافٌ أربعةٌ مِن أصنافِ الخَلْقِ في العملِ بِرُكْنَي هذه الآيةِ الكريمة.

وبهذا يُعلَم أنّه يَنبغي للعاقلِ أنْ يَتَفَقَّدَ هذين الأمرين العظيمين؛ في أعمالِه وسائرِ أحوالِه، فإذا عَزَمَ على الصيامِ استعانَ باللهِ على صِدقِ النيةِ وصِحّةِ العمل، والإقبالِ بقلبِه على الله، ثم سَألَ ربَّه القبول، وإذا أرادَ أنْ يُصليَ سَألَ اللهَ الإعانةَ على إقامتِها، والخشوع فيها، وإخلاص النيةِ وسلامتها من الوساوس والخطرات، وأَكْثَرَ مِن الدعاءِ النبوي: «اللهم أَعِنِّي على ذكرِك وشُكرِك وحسنِ عبادتِك»[1].

---

(١) رواه أحمد (٢٢١١٩)، وصححه ابن خزيمة (٧٥١)، وابن حبان (٢٠٢١).

ومِن عجائبِ هذه الآية، أنّ العبدَ يَتوسَّلُ بها بين يدي الدعاءِ الأعظم في السورةِ: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾[1]، فيَعْتَرِفُ أنّه عبدٌ ذليلٌ مُفتقِرٌ مُحتاجٌ طالِبٌ للعون، وهذه مِن أَعظمِ وسائلِ إجابةِ الدعاء، فيُقالُ له ما أَهمُّ شيءٍ تريدُ أنْ يُعينَكَ اللهُ عليه فيقول: اهدِنا الصراط المستقيم.

وحَريٌّ بمن حَمِدَ اللهَ وأثنى عليه ومجَّدَه، ثم اعترَفَ بِعُبوديتِهِ بربِّهِ أن يُجابَ دعاؤه وتُحَقَّقَ طلباتُه.

والحاصلُ أن هذه الآيةَ عظيمةُ القَدْرِ، جليلةُ المكانة، جديرةٌ بالتأمّل والتدبُّر، فيها أضعافُ ما ذكرنا من الوقفات، والتوجيهاتِ والحقائقِ العاليات، رَزَقَنا اللهُ القيام بها، وأداءَ حقِّها، وحُسْنَ التفكُّرِ فيها.

اللهم وارزقنا صدقَ التعبُّد لك، والاستعانة بك، واغفر اللهم لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



---

(١) الفاتحة: ٦.



المجلس الخامس

عظمة الله في ضوء اسمه العليم

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على عبدِهِ ورسولِهِ ومصطفاه، أما بعد:

فإنّ مِن أعظمِ ما ينبغي للمؤمن أنْ يتأمَّلَ في معانيه، ويَتدبَّرَ في آثارِه: أسماءُ الله الحسنى.

ومِن هذه الأسماءِ الحسنى التي تَكَرّرَ ورودُها في كتابِ اللهِ تعالى: اسمُه (العليم) جل جلاله، وتَقدَّستْ أسماؤه، العالمُ ببواطنِ الأمورِ وظواهرِها، دقيقِها وجليلِها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾[1].

«وهو سبحانه وتعالى يعلمُ الأمورَ المتقدمةَ والأمورَ المتأخرة، أزلًا وأبدًا ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَا﴾[2].

وهو سبحانه يعلمُ جليلَ الأمورِ وحقيرَها، وصغيرَها وكبيرَها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[3].

---

(١) الأنفال: ٧٥.
(٢) سبأ: ٢.
(٣) آل عمران: ٥ - ٦.



ويعلمُ تعالى ظواهرَ الأشياءِ وبواطنَها، غيبَها وشهادتَها، ما يعلمُ الخلقُ منها وما لا يعلمون ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾[1].

ويعلمُ تعالى ما تحت الأرضِ السفلى، كما يعلمُ ما فوق السماواتِ العُلى ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾[2].

ويعلمُ تعالى جزئياتِ الأمور، وخبايا الصدور ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[3].

ويعلم سبحانه خفايا ما وَقَعَ ويَقعُ في أرجاءِ العالَم، وأنحاءِ مُلْكه ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾[4].

وهو سبحانه يعلمُ الأقوالَ والأسرار ﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾[5]، ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾[6]، أحاطَ علمُه بجميعِ الأشياءِ في كلِّ الأوقات، ولا

---

(١) الجن: ٢٦، ٢٧.
(٢) الحج: ٧٠.
(٣) التغابن: ٤.
(٤) المجادلة: ٧.
(٥) طه: ٧.
(٦) الرعد: ١٠.

يَعرضُ تعالى لعلمه خفاءٌ ولا نسيان ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾[(١)]»[(٢)].

وغير ذلك من النصوصِ الكثيرة الدالةِ على عظمةِ علمِ الله جل جلالُه، فإنَّ تَدبُّرَ بعضِ ذلك يكفي المؤمنَ البصيرَ معرفةً بإحاطةِ علمِ الله تعالى، وكمالِ عظمتِه، وجليلِ قَدْرِه، وأنه الربُّ العظيمُ المالكُ الكريم.

أيها المؤمنون:

دعونا نقف -نحن وإياكم- مع آيةٍ من آياتِ الله، الدّالةِ على عظمةِ علمه سبحانه وتعالى، وكمالِ إحاطته بالمعلومات، يقول تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[(٣)].

يا له من مشهدٍ شاملٍ واسع عميق: مَشهدِ الورقِ الساقطِ من شجرِ الأرض جميعًا، والحبِّ المخبوءِ في أطواءِ الأرضِ جميعًا، والرَّطْبِ واليابسِ في أرجاءِ الأرضِ جميعًا.

إنَّ هذا المشهدَ كما أنه لا يتَّجهُ إليه الفكرُ البشريُّ والاهتمامُ البشريُّ، وكذلك لا تَلْحَظُه العينُ البشرية، ولا تَلمُّ به النّظرةُ البشرية، فهو المشهدُ الذي يَكْشِفُ بجملتِه عن سعَةِ علمِ اللهِ وحده، المشرفِ على كلِّ شيء، المحيطِ بكلِّ شيء،

---

(١) طه: ٥٢.
(٢) «المواهب الربانية» لابن سعدي ص: (١٠٨-١٠٩) (بتصرف).
(٣) الأنعام: ٥٩.

الحافظِ لكلِّ شيء، الذي تَتَعلقُ مشيئتُه وقَدَرُه بكلِّ شيء: الصغيرُ كالكبير، والحقيرُ كالجليل، والمخبوء كالظاهر، والمجهول كالمعلوم، والبعيد كالقريب.

﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ فتأمّل ماذا يدخُلُ تحت كلمةِ الغيب؟ إنه غيبٌ ممتدٌّ في عُمقِ الزمانِ والمكان، وفي الماضي والحاضرِ والمستقبل، وفي أحداثِ الحياةِ وتصورات الوجدان.

﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾، فكم في البرِّ والبحرِ من مخلوقاتٍ ساكنةٍ ومُتحركة؟!

﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ﴾ الله أكبر! ماذا لو أنّ كلَّ دُولِ العالمِ اجتمعتْ لِتُشكِّلَ جيوشًا من العمّالِ؛ لِتَرصِدَ حركةَ الأوراقِ المتساقطة؟ كم سَتُحصي؟ وكم سيفوتُ عليها؟ أمَّا اللهُ العليم، فلا يَعزُبُ عنه ورقةٌ واحدة! رطبةٌ أو يابسة! صغيرةٌ أم كبيرة! ورقةٌ من شجرِ البر أم من شجرِ البحر! فسبحانه!

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ ﴾ فأَطْلِق لِفكرِكَ وخيالك ـ أيها المؤمن بربه العليم ـ وتَفكّر في مساحةِ هذه الظلمات، وفي حجمِ هذه الحبّة!... إنها لا تخفى على الله!

﴿ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾: إنه عمومٌ لا يَشِذُّ عنه شيء! لِيدخُلَ فيه كلُّ آدميٍّ وحيوانٍ وشجرٍ وبرٍ وبحر.. كلُّها في «كتابٍ مبين»[1]!

---

(١) ينظر «في ظلال القرآن» آية (٥٩) من سورة الأنعام.

يا أمةَ القرآن!

ومما اختص الله بعلمه: مَفاتِحُ الغيب، وهي خمسٌ لا يعلمُهن إلا الله، وهي المذكورةُ في آخرِ آيةٍ من سورةِ لقمان: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾[1].[2].

أما الساعة: فقد قال الله عنها: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[3].

وأما نزول الغيث: فإنَّ علم البشر مهما اتسع، فإنما غايتُه التوقُّعُ لوقتِ النزول، وقد يتِمُّ وقد لا يتم، ثم لو قُدِّرَ قدرتُهم على التوقيت الدقيق، فمن الذي يعلمُ عددَ قطرِ الأمطارِ إلا الله! ومَن الذي يعلمُ مصدرَ تلكمُ القطراتِ إلا الله! ومن ذا الذي يعلمُ بمواقع تلك القطراتِ حين تنزل! هذه على سَهْل، وتلك على جبل، وثالثةٌ تصيبُ رأسَ كائنٍ حي، ورابعةٌ على شجرة، وهكذا، فسبحان من أحاط علمُه بكلِّ شيء.

وأما علم الأرحام: فإنَّ غايةَ ما وَصَلَ إليه علمُ الطبِّ الحديث، هو القدرةُ على تحديدِ جنسِ الجنين، وهم يُصيبون كثيرًا، ويُخطئون كثيرًا، ولو قُدِّر أنهم

---

(١) لقمان: ٣٤.
(٢) كما جاء في صحيح البخاري (٤٦٢٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
(٣) الأعراف: ١٨٧.

يُصيبون تمامًا، فإنّ تحديدَ جنسِ المولودِ إنما هو معلومةٌ واحدةٌ من معلوماتٍ كثيرةٍ جدًا في علمِ الأرحام، فمَنِ الذي يعلمُ وقتَ التقاء النطفةِ بالبويضةِ بالساعةِ والدقيقةِ والثانية؟ ومن الذي يعلمُ حين التقتا عن نوعِ الجنس؟ ومن الذي يعلمُ بتلكم الأسئلةِ الأربعة التي يُؤْمَرُ المَلَكُ بكتابتها: عمله، ورزقه، وأجله، وشقي أو سعيد؟ ومن الذي يعلمُ متى نُفِخَت في الجنين الروح؟ ومن الذي يعلمُ هل سيعيش هذا الجنينُ حتى يخرج؟ ومن الذي يعلمُ اللحظةَ التي يخرجُ فيها هذا الجنين إلى هذه الدنيا؟ إنه الله وحده، جل جلاله.

وأما خفاءُ كَسْبِ الغدِ والأجلِ فهذا مما لا يحتاجُ إلى تفصيل، فكيف يُصَدِّقُ بعد ذلك -بعضُ الناس- ما يُرَوِّجُه بعضُ الدجالين والكهان، عَبْرَ بعضِ الفضائيات أو الإذاعات باسمِ قراءةِ الحظ، أو الكف، أو الفنجان!

يا أمة القرآن!

هذه ومضةٌ في عالمٍ عظيم من معاني هذا الاسم الكريم من أسماء الله الحسنى، التي ينبغي أن يُورِثَ العلمُ بها: الخوفَ منه سبحانه، وخشيتَه في السر، وحفظَ الجوارحِ عما يُغضبُه، فإنه سبحانه، شهيد، مُطلعٌ، لا يخفى عليه شيءٌ من أحوالنا.

اللهم ارزقنا خشيتَك في الغيبِ والشهادة، ومراقبتَك في السرِّ والعَلَن.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.





المجلس السادس

منهجُ السلفِ في تلقي القرآنِ وتدبُّرِه(١)

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على عبدِهِ ورسولِهِ ومصطفاه، أما بعد:

فإنَّ الرِّفْعةَ والعِزَّةَ التي نالها السَّلَفُ الصالح، وذَلّتْ لهم رِقابُ العربِ والعجم، إنما كانت بسببِ تمسُّكِهم الحقيقي بِكتابِ اللهِ تعالى.

وحَقيقٌ بمَن يُريدُ سلوكَ طريقِهم، أنْ يَتعرَّفَ على منهجِهم في تلقي هذا القرآنِ وتدبُّرِه، وهذا ما سَنُحاولُ الإشارةَ إليه بإيجازٍ في هذا المجلس.

إنَّ مَن تأمَّلَ حياةَ السلفِ مع القرآن، وَجَدَ أنَّ لهم مَنْهجًا في العنايةِ بهذه العبادةِ العظيمة، يُمكِن تحديدُ معالمِها فيما يلي؛ لعلَّنا نُفيدُ مِنها، ومِن أَبْرزِ تلك المعالم:

أولًا: معرفتُهم لمنزلةِ هذا القرآن، وإدراكُهم لمقصدِهِ الأعظم:

ذلك أنّ تلقِّي الأمرِ بالمحبةِ والتعظيمِ والإيمان؛ يؤدِّي إلى حُسْنِ التعامُلِ معه، ومَن عَرَفَ قِيمةَ الشيءِ اعتنى به واهتمَّ به، وقد ظَهَرَ ذلك في الجيلِ الأولِ من خِلالِ أقوالِهم وأفعالِهم، ومن أقوالِهم المأثورةِ في بيانِ عظمةِ القرآنِ

(١) للدكتور محمد بن عبد الله الربيعة، عضو الهيئة العالمية لتدبر القرآن، وعضو هيئة التدريس في جامعة القصيم.

وأَثَرِه، التي ترجموها إلى الاستجابةِ العملية:

قولُ عبدِ الله بنِ مسعود -رضي الله عنه-: «إنّ هذا القرآنَ مأْدبةُ الله، فتعلَّموا من مَأدبتِه ما استطعتم، إنَّ هذا القرآنَ هو حَبلُ اللهِ الذي أَمَرَ به، وهو النور المبين، والشفاءُ النافعُ عصمةٌ لمن اعتصم به»[1]،

وعنه رضي الله عنه قال: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَعلَم أَنه يُحِبُّ اللهَ ورسولَه فليَنظُر: فإِنْ كان يُحبُّ القرآنَ، فهو يحبُّ اللهَ ورسولَه»[2].

ويقولُ ابنُ عباسٍ -رضي الله عنهما-: «ضَمِنَ اللهُ لَمن قَرَأَ القرآنَ لا يَضِلُّ في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، ثم قَرَأَ: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾[3].»[4]. والمرادُ بالقراءةِ الاتِّباعُ بدليلِ نَصِّ الآية.

وقال الإمام البخاري -رحمه الله-: «لا يجدُ طَعْمَه ونَفْعَه إلا مَن آمَنَ بالقرآنِ، ولا يحملُه بحقِّه إلا الموقِن»[5].

ونحن بحاجةٍ ماسّةٍ لتربيةِ قلوبِنا على هذا المعنى، فلقد ضَعُفَ تعظيمُ القرآنِ ومحبتُه الصادِقةُ والإيمانُ به في قلوبِ كثيرين، مما أَدَّى إلى ضَعفِ

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ١/ ٧٤١رقم ٢٠٤٠ وقال (صحيح الإسناد ولم يخرجاه). وابن أبي شيبة ٦/ ١٢٥برقم ٣٠٠٠٨.
(٢) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص٢١.
(٣) طه: ١٢٣.
(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٤١٣ برقم ٣٤٣٨.
(٥) صحيح البخاري ٢٤/ ٤١٠.

الاتصال به، والتأثُّرِ فيه، وهنا مَكمَنُ المشكلة، والحلُّ: غَرْسُ تعظيمِ القرآنِ في نفوسِ الناشئة، ومحبتهم له محبةً صادقةً ينبعِثُ معها الأثَرُ والقبول، واستمرارُ التذكيرِ بقيمةِ القرآن، وبالهدفِ الأسمى لنزولِه.

ثانيًا: تعلُّمُهم وتعليمُهم الإيمانَ قَبلَ القرآن:

والمقصودُ: أنهم غُرِسَ في قلوبِهم تعظيمُ الله، وتعظيمُ أمرِه ونهيِه، فسَهُلَ عليهم بَعدَ ذلك تَلَقِّي الأحكامِ الشرعية، وهذا جانبٌ رئيسٌ في إحياءِ التربيةِ القرآنيةِ في النفوس.

وهذا المنهجُ قد اتخذَهَ القرآنُ في تربيتِهِ للصحابةِ أوَّلَ الإسلام، حيثُ كان أوَّلُ نزولِ القرآنِ تَرْبيةً على الإيمانِ في السُّورِ المكية -وخاصّةً المُفصَّل منها- فكُلُّه في تَرْسِيخِ الإيمانِ باللهِ واليومِ الآخر، فأَوْرَثَ في نفوسِهم الإيمانَ الصحيحَ والتعظيمَ للقرآن، وهَيَّأَ نفوسَهم لِتَلَقِّي تَوجيهاتِه.

يوضِّحُ هذا المنهجَ -الذي رَبَّى النبيُّ ﷺ عليه أصحابَه- أحدُ التلاميذِ النُّجباءُ في مدرسةِ محمدٍ ﷺ، وهو جُندبُ بنُ عبد الله -رضي الله عنه- قال: «كنّا مع النبيِّ ﷺ ونحن فتيان حزاير فتَعَلَّمْنا الإيمانَ قبلَ القرآن، ثم تَعلمنا القرآنَ فازددنا إيمانًا»[1].

---

(١) أخرجه ابن ماجه ١/ ٧٤ رقم ٦٤ والتاريخ الكبير للبخاري ٢/ ٢٢١ وسنن البيهقي الكبرى ٢/ ٤٩ رقم ٥٤٩٨ والطبراني في المعجم الكبير ٢/ ٢٢٥ رقم ١٦٥٦ وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه ١/ ١٦ رقم ٥٢

فتأمّل كيف كان النبيُّ ﷺ يَبدأُ في بناءِ الإيمانِ في نفوسِهم؛ حتى إذا ما رَسَخَ الإيمانُ في قلوبِهم، وكانوا مُؤهَّلِين لِتَلَقِّي القرآن، وجَّهَهُم إليه، فازدادوا به إيمانًا[١].

ثالثًا: حُسنُ تَلَقِّيهم القرآنَ بأنه رسائلُ من ربهم للعمل والامتثال، فكانوا يتدبَّرونها بالليل ويتمثلونها بالنهار.

وقد تواترت الأدلةُ من القرآنِ والسنةِ وآثارِ السلفِ على الأمرِ بالعملِ بالقرآنِ وأنه المقصودُ الأعظم[٢].

١- يقول ابن مسعود -رضي الله عنه-: (كان الرجُلُ مِنّا إذا تعلَّمَ عَشرَ آياتٍ لم يجاوزْهن حتى يَعرِفَ معانيَهُن والعملَ بهن)[٣].

ويقول ابن عمر -رضي الله عنهما-: «كان الفاضِلُ من أصحابِ النبيِّ ﷺ في صَدْرِ هذه الأُمّةِ لا يحفظُ من القرآنِ إلا السورة أو نحوها، ورُزِقوا

---

(١) ورُوي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: (لقد عشنا برهة من دهرنا وأحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن، فتنزل السورة على محمد ﷺ فنتعلم حلالها وحرامها، وأمرها وزجرها، وما ينبغي أن يقف عليه منها، ثم رأيت رجالًا يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ ما بين خاتمته ما يدري أمره ولا زجره، ولا ما ينبغي أن يقف عنده، فينثره نثر الدقل). أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٢/ ٤٠٣ والبيهقي في السنن الكبرى ٣/ ١٢٠ رقم ٥٠٧٣ والحاكم في المستدرك ١/ ٩١ رقم ١٠١ وقال هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولا علة له ووافقه الذهبي.

(٢) انظر عظمة القرآن، مبحث (فضائل العمل بالقرآن) ص٤٩٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ٤.

العملَ بالقرآن، وإنَّ آخرَ هذه الأُمَّةِ يُرْزَقُون القرآنَ منهم الصبي والأعمى، ولا يرزقون العملَ به»[١].

كما كان هذا هو منهجُهم في تربيةِ أبنائِهم وطُلّابِهم، وتعظيمه في نفوسِهم والتوصية به، فتأمَّل هذه الكلماتِ العظيمةِ التي قالها سَيِّدٌ من ساداتِ التابعين، وهو الحسنُ البصري -رحمه الله- حيث يقول: «إنَّ هذا القرآنَ قَرَأه عبيدٌ وصبيانٌ لم يأخذوه مِن أوَّله، ولا عِلْمَ لهم بتأويلِه، إنَّ أَحقَّ الناسِ بهذا القرآنِ مَن رُئِي في عملِه، قال اللهُ عز وجل في كتابه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[٢]، وإنَّما تدبُّرُ آياتِه اتّباعُه بعملِه، أَمَا واللهِ ما هو بحفظِ حروفِهِ وإضاعةِ حدودِهِ! حتى إنَّ أحدهم لَيقول: قد قَرَأْتُ القرآنَ كلَّه فما أَسْقَطتُ منه حرفًا؛ وقد واللهِ أَسقَطَه كلَّه! ما يُرَى له القرآنُ في خُلُقٍ ولا عمل! حتى إنَّ أحدَهم لَيقول: إني لأقرأُ السورةَ في نَفَسٍ واحدٍ، واللهِ ما هؤلاءِ بالقُرَّاءِ ولا العلماءِ ولا الحكماءِ ولا الوَرَعةِ! متى كانت القُرّاءُ تقولُ مثل هذا؟ لا أَكْثَرَ اللهُ في الناسِ مثلَ هؤلاء»[٣].

كما يُؤَكِّدُ ذلك أيضًا وصاياهم لِحَمَلةِ القرآنِ والتأكِيدِ على ظُهورِ الأَثَرِ فيهم، كما قال ابن مسعود: (ينبغي لحاملِ القرآنِ أَنْ يُعرفَ بليلِه إذا الناسُ

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١/ ٣٠.
(٢) ص: ٢٩.
(٣) الزهد والرقائق لابن المبارك ت أحمد فريد ج٦/ ٦١٠ رقم ٧٤٢ ط دار المعراج.

ينامون، وبنهارِه إذا الناسُ يُفطرون، وبحزنِه إذا الناس يَفرحون، وببكائِه إذا الناسُ يَضحكون، وبصَمتِه إذا الناسُ يَخُوضُون، وبخشوعِه إذا الناس يختالون، وينبغي لحاملِ القرآن أَنْ يكونَ مُستكينًا ليِّنًا، ولا ينبغي له أن يكونَ جافيًا ولا مماريًا ولا صَيّاحًا ولا صَخّابًا ولا حديدًا) [١].

وهذا المنهجُ هو الذي خَرَّجَ ذلك الجيلَ وصَنَعَه، ولو أننا تَلَقَّينا القرآنَ كما تَلقّاه الجيلُ الأولُ بهذا المنهج، وربَّينا عليه أَجيالَنا، لَظَهَر لنا أَثَرُه وتَأثيرُه في نفوسِنا.

«وحين نقرأُ القرآنَ بهذا الوعْي؛ سنجِدُ عنده ما نريد. وسنجدُ فيهِ عجائبَ لا تخطُرُ على البالِ الساهي! وسنجدُ -عندئذٍ- في القرآنِ مَتاعًا وحياة؛ وسَنُدرِكُ معنى قولِه تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾[٢]، فهي دعوةٌ للحياة، للحياةِ الدائمةِ المُتجدِّدة» [٣].

رابعًا: تلاوةُ القرآنِ بتَرتيلٍ وتمهُّل وتحزّن، والقيامُ به في الليل:

وهذا هو المنهجُ الذي قَرَّرهُ القرآنُ وأَشادَ بأهلِه في قولِه تعالى: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَـٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَـٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾[٤].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٨/ ٣٠٥.
(٢) الأنفال: ٢٤.
(٣) في ظلال القرآن ١/ ٢٦١.
(٤) الإسراء: ١٠٦، ١٠٧.

فتأمَّل كيف أَمَرَ اللهُ تعالى نبيَّه بأَنْ يَقرأَ القرآنَ على مُكْثٍ؛ وهو التَّمهُّل والتّرتيلُ وعدمُ الإسراعِ فيه، ثم أَشادَ بأهلِ هذا الوصفِ بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾.

وقد تجلَّى ذلك في حالِ السلف، ومما وَرَدَ عنهم في ذلك قولُ ابنِ أبي مليكة: «سافرتُ مع ابنِ عباس - رضي الله عنهما - مِن مكةَ إلى المدينةِ، فكان يَقومُ نصفَ الليلِ فيقرأُ القرآنَ حرفًا حرفًا، ثم يَبكي حتى تَسمعَ له نَشيجًا»[1].

وقال ابن مسعود: «لا تَهُذُّوا القرآنَ هذَّ الشِّعْر، وتَنثروه نَثْرَ الدَّقَل، وقِفُوا عند عجائبِه، وحَرِّكوا به القلوب، ولا يكن هَمُّ أحدِكم مِن السورة آخرَها»[2].

فقراءةُ القرآنِ بترتيلٍ وتمهلٍ وتدبرٍ هو مِن أعظم ما يُؤَثِّرُ في النفس، ويُصلِحُ القلب، وذلك كان منهجُ السلفِ الصالحِ، فهل نُربِّي أنفسَنا وأجيالَنا عليها؟

أما قراءةُ القرآنِ بالليلِ فهي أَقوى وسيلةٍ للتدبُّر، وأَجدَرُ أنْ يُفقَهَ بها القرآن، ولهذا قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾[3]، قال ابن عباس: هو أَجدرُ أن يفقه القرآن.

---

(١) مختصر قيام الليل لمحمد بن نصر ص١٣١.
(٢) مختصر قيام الليل ص١٣٢.
(٣) المزمل: ١ - ٦.

يقول الشنقيطي -رحمه الله-: « لا يُثبِّتُ القرآنَ في الصّدْرِ، ولا يُسَهِّلُ حِفظَه ويُيَسِّرُ فَهمَه، إلا القيامُ به في جوفِ الليل»[1].

وبالجُملةِ -أيها المؤمنون- « فلَقَد كان القرآنُ هو محْوَرُ حياةِ السلف، ومادةُ حياةِ قلوبِهم، يحرصون عليه أَكْثرَ مِن حِرصِهم على تحصيلِ الطعامِ والشرابِ والراحة، ولِمَ لا! وهم يُدركون بأنَّ الحياةَ الحقيقيةَ هي حياةُ القلب»[2]

فإنْ أَردْنا ذوقَ حلاوةِ القرآنِ كما ذاقوها، فَلْنَسِرْ على طريقتِهم، التي أَشَرْنا إلى بعضِ معالمِها.

اللهم كما مَننتَ على مَن شِئتَ مِن عبادِك بِلذّةِ مُناجاتِك بتلاوةِ كتابك، فامْنُن علينا بمنِّك وكرمِك، واجعلنا مِن أهلِ القرآن، الذين هم أهلُك وخاصّتُك، واغفر اللهم لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



---

(١) مقدمة أضواء البيان ١/ ٤.

(٢) تحقيق الوصال بين القلب والقرآن ص٩١.



المجلس السابع

كيف نقرأ سُوَرَ القرآن؟ (١)

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على عبدِهِ ورسولِهِ ومصطفاه، أما بعد:

فالقرآنُ حدائقُ ذاتُ بهجة، إذا أَتَمَمْتَ سورةً وبدأتَ بأُخرى فقد انتَقَلْتَ مِن شَجَرةٍ يانعةِ الثمرةِ إلى شجرةٍ تُشبِهُها بثمرةٍ تختلفُ عنها، وإذا انتقلتَ من حِزبٍ إلى حزبٍ فمِن حَديقةٍ غَنّاءَ إلى روضةٍ أخرى، فـ (السَّبْعُ الطِّوال) و(ذواتُ الراء) و(المسبحات السبع) و(الطواسيم) و(الم) و(الحواميم) و(المفصل)؛ لِكلِّ حِزبٍ لونُه وطعمُه الخاصُّ به، ولِكلِّ سورةٍ ذَوقُها الخاصُّ بها، فتَذَوَّقْها بِرفْقٍ وحاذِرِ الهرس! والجرش! فهو سببُ التخمة والملل.

وهذا التنزيلُ العظيمُ هو مَأدُبَةُ الله في الأرض، والناسُ حولها ثلاثةُ أصناف:

جائعٌ محرومٌ منها، وسَقيمٌ يأكلُ وقد فَقَدَ حاسةَ الذَّوقِ فلمْ يَتَهَنَّ بها، ومُعافى رَأى على مَأدُبَةِ الكريم (١١٤) مختلفًا ألوانُها، فأَصبَحَ يَطعَمُ بِرِفقٍ

---

(١) للشيخ الدكتور عصام بن صالح العويّد، عضو الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، وعضو هيئة التدريس في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، بالرياض.

وأَدَبٍ كاملين، وفي فَمِهِ مع كلِّ (سورة) منها طَعْمٌ وذَوقٌ وعِطرٌ هو لها، ولأُختِها مِن سُورِ القرآنِ غيرُها، فكيف نتَذَوَّقُ لَذَّةَ القرآنِ، ونميِّزُ حلاوةَ كلِّ سورةٍ في القرآنِ عن حلاوةِ أختها؟

أولًا: لِيَكنْ بين يديك دائمًا تفسيرٌ مختصرٌ، كالتفسيرِ الميَسَّر أو زُبدةِ التفسير أو الجلالين، أو المصباحِ المنيرِ أو السراجِ في غريبِ القرآن لـ د.الخضيري ونحوِها.

ثانيًا: أَحضِرْ قَلبَك وحَرِّكْهُ بالقرآن، فإنْ شَرَدَ فَقِفْ والْحَقْ به، سَتَتعَبُ في البدايةِ وسَيُذعِنُ لك في النهاية [1]، لكنْ لِتَكُنْ على يَقينٍ أنه ضَرورةٌ كضرورةِ الروحِ للجَسَد.

ثالثًا: اجعلْ نفسَك طَرَفًا ثم ظرْفًا لخطابِ ربِّك، اجعل القرآنَ مِرْآةً نورانيةً تَرى فيها أقوالَك وأفعالَك، فهذا يُعَطَّرُ وهذا يُغْسَل، وهذا يُقَصُّ وهذا يُصفَّف، وهذا يُعالج وهذا يُبتَرُ إن لزم الأمر، وهكذا.

رابعًا: قَبْلَ أَنْ تَبدأ بالسورةِ؛ تأمَّل في اسمِها أو أَسمائِها فهو مِفتاحُها الذي تَدخُلُ به إليها، وقد قال ابنُ القَيِّم -رحمه الله-: «لَمَّا كانت الأسماءُ قوالبَ للمعاني، ودالةً عليها، اقتضت الحكمةُ أنْ يكونَ بينها وبينها ارتباطٌ

---

(١) وقد بيّنت ذلك بالتفصيل في رسالتي (فن التدبر في القرآن) فلتنظر لمن أحب التفصيل.

وتناسب، وأن لا يكونَ المعنى معها بمنزلةِ الأجنبيِّ المحضِ الذي لا تَعلُّق له بها، فإنَّ حكمةَ الحكيمِ تأبى ذلك، والواقعُ يَشهدُ بخلافِه، بل للأسماءِ تأثيرٌ في المسمَّيات، وللمسمَّياتِ تأثُّرٌ عن أسمائِها؛ في الحُسْنِ والقُبح، والخِفّة والثِّقَل، واللطافةِ والكَثافة، كما قيل:

وَقَلّما أَبْصَرَتْ عَيْنَاكَ ذَا لَقَبٍ ... إلّا وَمَعْنَاهُ إنْ فَكّرْتَ فِي لَقَبِه

ولما كان بين الأسماءِ والمسمياتِ من الارتباطِ والتناسُبِ والقَرابةِ ما بين قوالبِ الأشياءِ وحقائقِها، وما بين الأرواحِ والأجسامِ عَبَرَ العَقلُ مِن كلٍّ منهما إلى الآخر، كما كان إياسُ بنُ مُعاويةَ وغَيرُه يرى الشخص، فيقول: ينبغي أنْ يكونَ اسمُه كيت وكيت، فلا يكادُ يخطئ!... الخ كلامه رحمه الله [1].

وهذا إنْ كانَ في غيرِ القرآنِ فما بالُك بالقرآنِ العظيم؟ الذي أسماءُ سُورِهِ إمّا بِنَصِّ كتابٍ أو سنةٍ، أو إِجماعِ صحابةٍ أو استفاضةٍ في الأمة!

وكان الصحابةُ رضوانُ الله عليهم -خصوصًا ابن عباس- يَعتَنون بأسماءِ السُّورِ، أو أوصافِها التي تدلُّ على مقصودِها، ورَحاها الذي تَدور حوله، فَعَن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما أنّ عُمَرَ الفاروقِ رضي الله عنه قيل له: سورةُ التوبة؟ قال: هي إلى العَذابِ أَقرَبُ! ما أَقْلَعتْ عن الناسِ حتى ما كادَت تَدَع منهم أحدًا.

---

(١) زاد المعاد (٢ / ٣٠٧).

وعن حذيفة رضي الله عنه في براءة: يُسمُّونها سورةَ التوبةِ وهي سورةُ العذاب!.

وعن سعيدٍ بنِ جبير رضي الله عنه قال: قلتُ لابن عباس رضي الله عنهما: سورة التوبة؟ قال: التوبةُ! بل هي الفاضحة، ما زالتْ تَنزِلُ (ومنهم)، حتى ظَننّا أنْ لن يَبقى منّا أحدٌ إلا ذُكِرَ فيها.

وعن قتادةَ قال: كانت تُسمَّى هذه السورة: (الفَاضِحَةَ)، فاضِحةُ المنافقين[1].

وعن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: سورةُ الأنفال؟ قال: تلك سورةُ بدر[2].

وفي صحيحِ مسلم عن سعيدٍ بنِ جُبير قال: قلتُ لابنِ عباسٍ: سورة الحشر؟ قال: قل: بني النضير، أي: سورةُ بني النضير[3].

وفي البخاريِّ عن سعيدٍ بنِ جُبير عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما قال: جَمَعْتُ المُحْكَمَ في عهدِ رسولِ الله -ﷺ-، فقلتُ له: وما المحكم؟ قال المُفَصَّل[4].

قال سعيدُ بنُ جُبير: إنّ الذي تَدعونه المُفَصَّل هو المحكم.

---

(١) جميع الآثار السابقة راجعها في الدر المنثور الجزء ٤.
(٢) رواه مسلم (٣٠٣١).
(٣) المصدر السابق
(٤) (٥٠٣٦).

وأَضربُ مَثَلًا بأَعظمِ سَورِ القرآنِ وهي سورةُ الفاتحة:

هذا هو اسمُها الأَشهَرُ، وهو محلُّ إِجماعٍ يَقينيٍّ في أُمةِ القرآن، قال ابنُ عاشور -رحمه الله-: والفاتحةُ مُشتقةٌ مِن الفَتْح، وهو إِزالةُ حَاجزٍ عن مكانٍ مقصودٍ وُلُوجُه، فَصِيغَتُها تَقتَضي أَنَّ مَوصوفَها شيءٌ يُزيلُ حاجزًا[1].

فهي المفتاحُ الأعظمُ الذي يَفتحُ لك كلَّ بابٍ للخير، فهي مِفتاحُك لِعلْم الكِتاب، وهي مِفتاحُ الحُجُبِ بينك وبين الله، تأمَّل قولَ ابنِ كثير: وتَحَوُّلُ الكلامِ مِن الغَيْبَةِ إلى المواجهةِ بكافِ الخطابِ هو المناسب؛ لأنَّه لما أثْنى على اللهِ فكأنَّه اقتَرَبَ وحَضَرَ بين يدي الله تعالى؛ فلهذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[2].

ويقولُ ابنُ عاشور: وما هنا التفاتٌ بديع، فإنَّ الحامدَ لَمّا حَمِدَ اللهَ تعالى ووَصَفَه بعظيمِ الصفاتِ، بَلَغَتْ به الفِكرةُ منتهاها، فتَخَيَّلَ نفسَه في حَضرةِ الربوبية، فَخَاطَبَ ربَّه بالإِقبال[3].

فهي أبوابٌ تُفتَحُ شيئًا فشيئًا لمن وَفَّقَه الله، فَتَعَلَّم كيف يفتح بالفاتِحةِ تلك الأبوابَ المُغلَقَة.

---

(١) التحرير والتنوير ١/ ١٣١.
(٢) تفسير ابن كثير ١/ ١٣٥.
(٣) التحرير والتنوير ١/ ١٧٩.

فإذا أَضفتَ إليها أسماءَها الأُخرى «أم القرآن»، «الحمد»، «الشافية»، «الكافية»، وغيرَها، تَجَلَّتْ معانيها في قلبِ المتدبِّرِ أَكثَرَ فأكثر.

اللهم افتحْ قُلوبَنا لِتَدَبُّرِ كتابِك، وأَزِلْ ظُلمتَها بِنُورِ آياتِك، واغفِر اللهم لنا ولوالدينا ولجميعِ المسلمين.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.





المجلس الثامن

بين فواتح الآيات وخواتمها [١]

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على عبدِهِ ورسولِهِ ومصطفاه، أما بعد:

فإنّ مِن أبوابِ تدبُّرِ القرآنِ الكريم، التأمُّلُ في علاقَةِ الآيةِ بخاتمتِها، والوقوفُ على ذلك يَفتحُ لك بابًا مِن أبوابِ فَهمِ كتابِ الله تعالى، ويُبيِّنُ لك نوعًا مِن إعجازِ القرآنِ الكريم، وسوف نَعرِضُ بعضَ الأمثلةِ[٢] مع شرحٍ مُبسَّطٍ لها، ويَستطيعُ المُوفَّقُ أنْ يَقيسَ عليها:

المثالُ الأول:

لمّا ذَكَرَ الله قَوامةَ الرجلِ على المرأة، وحَقَّ الزوجِ في تأديبِ امرأتِهِ الناشزِ في قولِه سبحانه: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّ﴾، خَتَمَ الآيةَ بقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا﴾[٣]، فذَكَّرَ بِعُلُوِّهِ وكِبريائِهِ جَلَّ جلالُه تَرهيبًا للرِّجال؛ لئلّا يَعتَدوا على النساء، ويَتَعدَّوا حدودَ اللهِ التي أَمَرَ بها.

---

(١) للدكتور عبد المحسن بن زبن المطيري، عضو الهيئة العالمية لتدبر القرآن، وعضو هيئة التدريس بكلية الشريعة في جامعة الكويت.

(٢) وكل هذه الأمثلة مأخوذة من كتاب (ليدبروا آياته) بأجزائه الأربعة الأولى.

(٣) النساء: ٣٤.

المثالُ الثاني:

لمّا ذكَرَ اللهُ تعالى عُقوبَةَ السَّرِقَةِ في قولِه: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا ﴾، قال في آخرِها: ﴿ نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[1]، أي: عَزَّ وحَكَم فقَطَعَ يَدَ السارق، وعَزَّ وحَكَم فعَاقَبَ المُعتَدين شرعًا، وقدرًا، وجزاء، وفي ذلك القصةُ المشهورة، أنّ أعرابيًّا سمعَ قارِئًا يقرأُ هذه الآيةَ فأخطأَ في آخِرِها، وقال: (والله غفور رحيم)، فقال الأعرابيُّ: لو غَفَرَ ورَحِم لَمَا قَطَع، ولكنّه عَزَّ وحَكم فقطع، فنَظَروا في المصحفِ فإذا هي ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.

المثالُ الثالث:

في قولِه تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ من الإنسِ والجنِّ والملائكةِ وكلِّ المخلوقات، ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾[2]، وفي هذا حَفَاوةٌ بالدعاءِ والسؤال، والتَّعَرُّضُ لنَفَحاتِ ذي الجلال، فإنها مَظِنَّةُ تعجيلِ التبديلِ والتغيير، فإذا سألوه وأَلَحُّوا في سؤالِهم، كان مِن شأنِه أنْ يُجيبَ سائلَهم، ويُغيِّرَ أحوالَهم مِن الهوانِ والتَّخَلُّفِ، والجهلِ، والمرضِ والفُرقةِ والضياع؛ إلى الرِّفعةِ والمجدِ والعلمِ والعافيةِ والاتحاد. وهذه مناسبةُ اتصالِ أوَّلِ الآيةِ بآخرِها [3].

---

(١) المائدة: ٣٨..
(٢) الرحمن: ٢٩.
(٣) انظر تفسير ابن كثير ٧/ ٤٩٥ وما بعدها.

المثالُ الرابع:

حُكِيَ أنّ أَعرابيًّا سمع قارئًا يقرأ: ﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ (فاعلموا أن الله غفور رحيم)! ولم يَكن الأعرابيُّ مِن القُرّاءِ فقال: إنّ كان هذا كلامَ الله، فلا يقول كذا، ومَرَّ بهما رجل، فقال له الأعرابيُّ: كيف تَقرأُ هذه الآية؟ فقال الرجل: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1] فقال الأعرابيُّ: هكذا يَنبغي، الحكيمُ لا يَذكُرُ الغفرانَ عند الزَّلَل، لأنه إِغراءٌ عليه!

المثالُ الخامس:

قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[2]، ومُناسبةُ خَتْمِ الآيةِ بهذين الاسمين الكريمين: ﴿ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ دونَ غيرِهما؛ لمناسبتِهما للإِغاثةِ، لأَنَّ الوَلِيَّ يُحْسِنُ إلى مواليه، والحميدُ يُعطِي ما يُحمَدُ عليه.

المثالُ السادس:

قولُه تعالى عن الحُجّاج: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾، لّما كان الحجُّ حَشْرًا في الدنيا، والانصرافُ منه يُشبه انصرافَ أَهلِ الموقفِ بعدَ الحشرِ -فريقًا إلى الجنة وفريقًا إلى السعير-؛ ذَكَّرَهم بذلك بقولِه: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[3]، فاعملوا لِما يكونُ سببًا في انصرافِكم منه إلى دارِ كرامتِهِ لا إلى دارِ إهانتِه.

---

(١) البقرة: ٢٠٩.
(٢) الشورى: ٢٨.
(٣) البقرة: ٢٠٣.

المثالُ السابع:

في قولِه تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1]، فلم تُخْتَمُ الآيةُ بقوله (الغفور الرحيم)؛ لأَنَّ المقامَ مَقامُ غَضَبٍ وانتقامٍ مِمَّن اتخذ إلهًا مع الله، فنَاسَبَ ذِكْرُ العِزَّةِ والحكمة، وصار أولى مِن ذِكرِ الرحمةِ.

المثالُ الثامن:

قولُه تعالى بَعدَ ذِكْرِ أحكام القَذْف: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾[2]، قد يُقال: إِنَّ المُتَوَقَّعَ أنْ يُقال: (تواب رحيم)؛ لأَنَّ الرحمةَ مناسبةٌ للتَّوبة، لكنْ خُتِمتْ باسمِ الله ﴿حَكِيمٌ﴾ إشارةٌ إلى فائدةِ مَشروعيّةِ اللعانِ وحِكمتِه، وهي السِّترُ عن هذه الفاحشةِ العظيمة.

هذه -أيها المؤمنون- بعضٌ مِن الحِكَم التي تُلتَمسُ مِن المناسبةِ بين فَواتحِ الآياتِ وخَواتِمِها، وهي بابٌ عظيمٌ مِن أبوابِ التدبُّر، فاجتهدوا في تدبُّرِ كِتابِ ربِّكم، تَنْعَموا وتَسْعَدوا دنيا وأخرى.

اللهم لا تحرِمْنا بَرَكَةَ كتابِك، ولا تحجُبْ عنا -بذنوبِنا- فَهمَهُ والعملَ به، واغفر اللهم لنا ولوالدينا ولجميعِ المسلمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



(١) البقرة: ٢٠٣.
(٢) النور: ١٠.





المجلس التاسع

الطلاق الراقي [1]

الحمد لله، والصلاة والسلام على عبده ورسوله ومصطفاه، أما بعد:

فيقول الله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ﴾[2].

قد يحصلُ الشقاق، ويقعُ الطلاق، فلماذا تتغيرُ النفوس، ويظهَرُ العبوس؟ ففي الزواج كان الفرحُ والسرور، والبهجةُ والحُبور، وعند الطلاقِ ننسى كلَّ شيء، وكأنها معركةٌ مع عدوٍّ لا يستحق رحمة ولا رأفة، فلا مجال لتسامُحٍ ولا تعاطُف، ولا تراحمٍ ولا إحسان، بل صلفٌ وجحود، وظلمٌ وغضبٌ وبغضاء!

ما هذا الذي يفعله الناس؟ ألا يقرؤون كلامَ ربهم جلّ في علاه، ألا يتدبّرون آياتِه؟ ألا يحتكمون إلى أحكامِه، ويتخلّقون بآدابِه؟

ألا يُدْرِكون كيف هذَّب اللهُ أخلاقَ المؤمنين، وزرع في قلوبهم الرحمة، على خِلاف أهل الجاهلية الذين كانوا يظلمون ويتجاوزون الحدَّ دون رادع.

---

(١) للدكتور عويض العطوي، عميد البحث العلمي في جامعة تبوك.
(٢) البقرة: ٢٢٩.

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية ما روته عائشةُ رضي الله عنها، حيث قالت: كان الرجل يُطلِّقُ امرأتَهُ ما شاء أنْ يُطلِّقَها وإنْ طلّقَها مائةً أو أكثر، إذا ارتجعها قبل أن تنقضيَ عِدَّتُها، حتى قال الرجل لامرأته: والله لا أطلقك فتبيني مني، ولا آويك إليّ، قالت: وكيف ذلك؟ قال: أطلقك وكلّما قاربتْ عِدَّتُك أن تنقضيَ ارتجعتُك، ثم أطلقك وأفعل ذلك، فشَكَتْ المرأةُ ذلك إلى عائشة، فذَكَرَتْ ذلك عائشةُ إلى رسول الله ﷺ فسَكتْ فلم يقل شيئًا حتى نزل القرآن ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ﴾[1].

وعلينا أن نتلقّى هذا الحكمَ بالرّضى والقبول، وأن نطبِّقَه واقعًا عمليًّا عند الحاجة إليه، ولو تأمّلنا الآية الكريمة، وجدناها جَمعتْ الحكمَ الفقهي مع الإشارة إلى خُلُقٍ نبيلٍ يحسنُ التخلُّق به، فقد قال سبحانه: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾، لقد عرّف اللهُ لنا الطلاق، وسمّاه لنا بهذا الاسم، والطلاق من الإطلاق وهو ضد التقييد، والقيدُ هنا هو عقد النكاح الذي سمّاه اللهُ ميثاقًا غليظًا، وكما تمّ هذا الميثاق بمحبة ووئام، يمكن أن يَتِمّ فكُّه وحَلُّه بتقدير واحترام.

ومع أن المعروف أنّ الطلاق ثلاث، إلا أن الله -عز وجل- قال: ﴿مَرَّتَانِ﴾، قالوا: المراد أن الطلاق الذي فيه رجعةٌ مرتان، فإن راجع زوجتَه

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣١٠٦)، والبيهقي (١٤٩٥٠).

فقد أمسكها، وإن تركها حتى تنقضيَ العِدّةُ فقد سرَّحها، وقد قال سبحانه: ﴿مَرَّتَانِ﴾ ولم يقل: طلقتان؛ تنبيهًا على أنه ينبغي أن تكون مرّة بعد مرّة، كلُّ طلقة في مرّة، لا أن يجمعهما في مرّة.

وتأمل كلمة: (إمساك)، فهي تشير إلى الحرص والحياطة والحفظ، وحتى لا يُفهَم أمرٌ آخر قال سبحانه: ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾، والباء للمصاحبة، أي: هذا الإمساك يكون مصحوبًا بمعروف، وجاء المعروف (نكرة)، ولم يقل جَلَّت قدرتُه: (المعروف)؛ ليكونَ ذلك أكثر شيوعًا، فلن يَعدَمَ الزوجُ العاقلُ صورًا كثيرة من المعروف يعاملُ بها زوجتَه التي عادتْ إليه، المُهم أن يضعَ الزوجُ هذه الكلمة: ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ أمام عينيه، فينظر عندما يُعيدُ زوجتَه إلى بيتِهِ كيف يعاملُها، وكيف يكلِّمها، وكيف يعاشِرُها؟

أين هذا من أولئك الذين يرون في ضَعفِ الزوجةِ فرصةً لإبراز رجولاتٍ مُزيَّفة، في موقفٍ يَحسُنُ فيه المعروفُ والتعاملُ الحَسَن؟

إنّ عودةَ الزوجةِ تعني استمرارَ الحياةِ الزوجية، تعني استقرارَ العائلة، وإبحارَ السفينةِ من جديد، ولهذا بدأ سبحانه بها، فإنه «لما كان سبحانه وتعالى قد خَيَّره بين شيئين: الرجعة والتسريح الموصوفين، وكانت الرجعة أقرب إلى الخير، بدأ بها».

أمّا إذا تعذّر الإمساك، وكان الحل هو الفراق، فهنا يكون اللُّطفُ أكثر، والإحسانُ أظهر، لذا قال سبحانه في هذا المقام: ﴿أَوْ تَسْرِيحٌ﴾، يا لها من كلمة ما ألطفها في موقف لا يعرف فيه كثيرٌ من الناس إلا العنف! إنه لُطْفٌ حتى في الكلمة المعبرة عن الفراق، فلم يقل سبحانه: (أو فراق، أو طرد، أو إبعاد) بل ﴿أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾، إن أصواتَ الكلمة كلَّها هامسة هادئة، فأين هذا من صُراخِ الأزواج، وعباراتِ السبِّ واللَّعن، والطردِ والتهديد؟!

يا لها من أخلاق أصبحنا نتذكَّرُها كالأحلام، فهل من عودة لأخلاق القرآن؟

ليس هذا فحسب، بل لمّا كان التسريحُ يحملُ معنى المفارقةِ دون رجعة، وهذا ما لا يعهد فيه الإحسان عادة، جاء تقييد ذلك التسريح بالإحسان فقال جَلَّت قدرتُه: ﴿أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾، والباء للمصاحبة والملابسة، فإن حصل ذلك التسريحُ فليكن مصحوبًا بما يُخفِّفُ أَلَمَ الفراقِ بعد العشرة.

والإحسانُ أعلى من المعروف، فأمَرَنا بالإحسان حالَ الطلاق، حال الفراق، فمن يفعل ذلك اليوم؟!

والإحسانُ هو حُبُّ الخيرِ للناس، ومساعدتُهم، ورفعُ معاناتهم،

والإحسانُ عطاءٌ وحُبٌّ وكَرَم، وصُورُهُ كثيرةٌ تتناسبُ مع كلِّ حالة، وهذا هو المطلوبُ ولو في حال الطلاق، وقد قالوا: ومن الإحسان: «أنه إذا تركها أدَّى إليها حقوقَها المالية، ولا يذكُرُها بعد المفارقة بسوء، ولا يُنَفِّر الناسَ عنها»، يقول السعدي: «ومن الإحسان، أن لا يأخُذَ على فراقِهِ لها شيئًا من مالها، لأنه ظُلْمٌ، وأخْذٌ للمال في غير مقابلة بشيء»، ومن ذلك أيضًا: «بذْلُ الصَّدَاقِ كاملًا وأن لا يشاحِحَها في شيء لها فيه حق، مع طيب المقال وكرم الفعال».

مَنْ اليوم مَنْ يطبِّق هذا المفهوم الراقي في الطلاق؟ ويتسامى بأخلاقه فوق ما ألِفَه الناسُ من سلوكياتٍ وتصرُّفاتٍ لا تتناسبُ مع عَظَمةِ هذا الدين؟

مَنْ يَهدي هديةً مع طلاقِه؟ أو يقولُ كلامًا طيّبًا مع طلاقِه؟ أليس هذا أدْعى إلى بقاءِ علاقات أهل الزوجة مع الزوج؟ هل المطلوب أن يغضبَ الجميع، ويتألم الجميع؟ أليس هذا أدْعى لحفظِ الوفاء بين الرجل والمرأة حتى بعد الطلاق، فيحفظان أسرارَ بعضهما؟ بلى والله.

هذا رجلٌ في زماننا قدَّر اللهُ أن يُطلِّق زوجتَه، لكنّه لم يَرْعَ حقَّ اللهِ فيها، بل قال لها: واللهِ لأُحْرِقَنّ قلبَك في بناتِك، فكانت لا تراهن إلا خِلْسَةً في المدرسة!

وعلى النقيض من ذلك: ذُكِر أنّ رجلًا كانت بينه وبين زوجتِه خلافات، فإذا سُئِل عن ذلك، قال: هذه أسرارُ بيتي لا أُفشيها، وبعد مُدَّةٍ طلّقها، فقالوا له: لم فعلْتَ ذلك، ما عيوبُها؟ فقال: هي الآن غريبةٌ عني لا يحقُّ لي التحدُّثَ في عرضِها، يا لها من أخلاق، وصدق الله: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ﴾.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.





المجلس العاشر

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾[1]

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ الله، وعلى آلِه وصحبِه ومَن والاه، أما بعد:

فإنه لما تَقلَّبَت الأحوالُ بيوسفَ عليه الصلاةُ والسلام، وتَطوَّرَتْ به الأطوار، عَرَف أنَّ هذه الأشياءَ وغيرَها لُطفٌ من لُطفِ اللهِ له، فاعترفَ بهذه النعمةِ فقال: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾[2].

وهذا من أَعظمِ نِعَمِ اللهِ على العبد، أنْ يَعرِضَ أحوالَه التي تمرُّ به على معاني أسماءِ الله الحسنى، وصفاتِه العلى؛ فإنّ هذا له فائدتان:

الأولى: زيادةُ الإيمان.

الثانية: سهولةُ تلقي المصائبِ المؤلمة، وهذا يزدادُ حين يبلُغُ العبدُ منزلةَ الرضا عن الله، بحيث يوقِنُ أنَّ اختيارَ اللهِ خيرٌ مِن اختيارِه لنفسِه.

---

(١) الدرس في أغلبه ملخص من كتاب «المواهب الربانية» لابن سعدي (بتصرف)، ص: (١١٩) وما بعدها.

(٢) يوسف: ١٠٠.

أيها المؤمنون!

إنّ مِن أسماءِ اللهِ الحسنى التي تكرَّرَ ذِكرُها في كتابِ الله تعالى، ولها أثرُها البالغُ في حياةِ العبد -لمن فقه معناها وعمل بمقضاها-: اسمُ اللهِ اللطيف، الذي تمّدّحَ سبحانه به في مواضعَ مِن كتابِ الله، منها: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾[1]، ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾[2]، فكيف نعيشُ مع هذا الاسم؟ وما آثارُه الإيمانيةُ علينا؟

إنّ التأمُّلَ في آثارِ لطفِه بعبادِه، هو الذي يُجيبُ على هذه الأسئلة، والتي تعرَّضُ لها العلامة السعدي -حين بيّن شيئًا من آثارِ لطف اللهِ بعباده- فقال:

«ومِن لطفِه بعبادِه: أنه يُقدّر أرزاقَ عبادِه، بحسَبِ علمِه بمصلحتِهم لا بحسَبِ مراداتِهم، فقد يريدون شيئًا وغيرُه أصلح؛ فيُقدِّرُ لهم الأصلحَ وإن كرهوه؛ لطفًا بهم وبرًّا وإحسانًا ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾[3]، ﴿۞ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾[4].

---

(١) الأنعام: ١٠٣.
(٢) الملك: ١٤.
(٣) الشورى: ١٩.
(٤) الشورى: ٢٧.

ومِن لطفِه بهم: أنه يُقدِّرُ عليهم أنواعَ المصائب، وضروبَ المحنِ، والابتلاءِ بالأمرِ والنهيِ الشاق؛ رحمةً بهم ولطفًا، وسَوْقًا إلى كمالِهم وكمالِ نعيمهم: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

ومِن لطفه بعبدِه: أن يُقدَّرَ له أن يتربّى في ولاية أهلِ الصلاحِ والعلمِ والإيمان، وبين أهلِ الخير؛ ليَكتَسِبَ مِن أدبِهم وتأديبِهم، ولينشأَ على صلاحِهم وإصلاحِهم، كما امتنَّ الله على مريمَ في قوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾[2].

ومن ذلك: إذا نشأَ بين أبوين صالحين، وأقاربَ أتقياء، أو في بلدِ صلاح، أو وفّقه الله لمقارنةِ أهلِ الخيرِ وصحبتِهم، أو لِتربيةِ العلماءِ الربانيين؛ فإنّ هذا مِن أعظمِ لطفِه بعبدِه، فإنّ صلاحَ العبدِ موقوفٌ على أسبابٍ كثيرة: منها؛ بل مِن أكثرِها وأعظمِها نفعًا: هذه الحالة، ومِن ذلك إذا نشأَ العبدُ في بلدٍ أهلُهُ على مذهبِ أهلِ السنةِ والجماعةِ فإنَّ هذا لُطفٌ له.

ومِن لطفِ اللهِ بعبدِه: أنْ يجعلَ رزقَه حلالًا في راحةٍ وقناعة، يحصلُ به المقصود، ولا يَشغَلُه عما خُلق له من العبادةِ والعلمِ والعمل، بل يُعينه على

---

(١) البقرة: ٢١٦.
(٢) آل عمران: ٣٧.

ذلك ويُفرّغه، ويُريحُ خاطرَه وأعضاءَه، ولهذا مِن لُطفِ اللهِ تعالى لعبدِه أنه ربما طَمِحتْ نفسُه لسببٍ من الأسباب الدنيوية، التي يَظُنّ فيها إدراكَ بغيتِه، فيَعلَمُ اللهُ تعالى أنها تَضرُّه وتَصُدُّه عما ينفعه؛ فيحولُ بينَه وبينها، فيظلّ العبدُ كارهًا وهو لم يدرِ أنّ ربَّه قد لَطَفَ به، حيث أبقى له الأمرَ النافع، وصرفَ عنه الأمرَ الضار، ولهذا كان الرضى بالقضاء في مثل هذه الأشياء من أعلى المنازل.

ومِن لطفِ الله بعبدِه - إذا قَدَّر له طاعةً جليلةً لا تُنال إلا بأعوان -: أن يُقدِّرَ له أعوانًا عليها ومساعدين على حملِها، قال موسى عليه السلام: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾[1]، وكذلك امتنّ على عيسى بقوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾[2]، وامتنَّ على سيد الخلق في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[3].

ومِن لُطفِ اللهِ بعبدِه: أنْ يُعطيَ عبدَه - من الأولادِ والأموالِ والأزواج - ما به تقرّ عينُه في الدنيا، ويحصُلُ له به السرور، ثم يبتليه ببعضِ ذلك، ويأخذُه ويُعوّضُه عليه الأجرَ العظيمَ إذا صبرَ واحتَسَب، فنعمةُ اللهِ عليه بأخذِه على هذا الوجهِ أعظمُ من نِعمتِه عليه في وجودِه، وقضاءُ مجرد وطَرِه الدنيوي منه.

---

(١) طه: ٢٩ - ٣٤.
(٢) المائدة: ١١١.
(٣) الأنفال: ٦٢.

وهذا أيضًا خيرٌ وأجرٌ خارجٌ عن أحوالِ العبدِ بنفسه، بل هو لُطفٌ مِن الله له، قيّض له أسبابًا أعاضَه عليها الثوابَ الجزيل، والأجرَ الجميل.

ومِن لُطفِ الله بعبدِه: أن يبتليَه ببعضِ المصائب، فيوفِّقَه للقيامِ بوظيفةِ الصبرِ فيها؛ فيُنيلُه درجاتٍ عاليةً لا يدركُها بعملِه، وقد يُشدِّد عليه الابتلاءَ بذلك، كما فُعِل بأيوب عليه السلام، ويوجِد في قلبه حلاوةَ روحِ الرجاء، وتأميلَ الرحمة، وكشفَ الضر، فيُخفِّف ألمُه، وتنشطُ نفسُه، ولهذا من لُطفِ الله بالمؤمنين: أنْ جَعَل في قلوبِهم احتسابَ الأجر؛ فخفَّتْ مصائبُهم، وهان ما يلقون من المشاقِّ في حصولِ مرضاتِه.

ومِن لُطفِ الله بعبدِه المؤمنِ الضعيف: أن يعافيَه من أسبابِ الابتلاءِ التي تُضعِف إيمانَه، وتُنقِصُ إيقانَه، كما أنّ مِن لُطفِه بالمؤمنِ القوي: تهيئة أسبابِ الابتلاءِ والامتحانِ ويعينُه عليها، ويحمِلُها عنه ويزدادُ بذلك إيمانُه، ويعظُمُ أجرُه، فسبحان اللطيفِ في ابتلائِه وعافيتِه، وعطائِه ومنعِه.

ومِن لطفِ الله بعبدِه: أنْ يسعى لكمالِ نفسِه مع أقربِ طريقٍ يوصلُه إلى ذلك، مع وجودِ غيرِها من الطُرُقِ التي تبعُدُ عليه، فيُيَسّر عليه التعلُّم مِن كتابٍ أو مُعلمٍ يكونُ حصولُ المقصودِ به أقربَ وأسهل، وكذلك يُيسرُه لعبادةٍ يفعلُها بحالةِ اليسرِ والسهولة، وعدمِ التعويقِ عن غيرِها مما ينفعُه، فهذا من اللطف.

ومِن لُطفِ اللهِ تعالى بعبدِه: أنْ يجعلَ ما يبتليه به مِن المعاصي سببًا لرحمتِه، فيفتحُ له عند وقوعِ ذلك بابَ التوبةِ والتضرع، والابتهالِ إلى ربه، وازدراءِ نفسِه واحتقارِها، وزوالِ العُجبِ والكبرِ من قلبِه ما هو خيرٌ له من كثيرٍ من الطاعات.

ومِن لطفِه بعبدِه الحبيبِ عنده: إذا مالتْ نفسُه مع شهواتِ النفسِ الضارة، واسترْسلَتْ في ذلك؛ أن يُنَغِّصَها عليه ويُكدِّرَها، فلا يكادُ يتناولُ منها شيئًا إلا مَقرونًا بالمكدِّرات، محشوًّا بالغصص؛ لئلا يميلَ معها كلَّ المَيل، كما أنّ مِن لُطفه به أن يُلذِّذ له التقرُّبات، ويُحَلِّي له الطاعات؛ ليَميلَ إليها كلَّ المَيل.

ومِن لَطيفِ لطفِ اللهِ بعبدِه: أن يأجُرَه على أعمالٍ لم يعملْها بل عزَمَ عليها، فيعزِمُ على قُربةٍ من القُرَب ثم تَنحلُّ عزيمتُه لسببٍ من الأسبابِ فلا يفعلُها، فيحصُلُ له أجرُها، فانظر كيف لَطَفَ اللهُ به! فأوقَعَها في قلبِه، وأَدارَها في ضميرِه، وقد عَلِمَ تعالى أنه لا يفعلُها؛ سَوقًا لبرِّه لعبدِه وإحسانِه بكلِّ طريق. وأَلطَفَ من ذلك: أنْ يُقيِّضَ لعبدِه طاعةً أخرى غيرَ التي عَزَمَ عليها، هي أنفعُ له منها؛ فيَدَعَ العبدُ الطاعةَ التي تُرضي ربَّه لطاعةٍ أخرى هي أرضى لله منها، فتحصُلُ له المفعولةُ بالفعل والمعزومُ عليها بالنية، وإذا كان من يُهاجرُ إلى اللهِ ورسولِه، ثم يُدرِكُهُ الموتُ قبل حصولِ مقصودِه قد وقَعَ أجرُهُ على الله - مع أنّ قَطعَ الموتِ بغيرِ اختياره - فكيف بمن قَطَعت عليه نيتُه الفاضلةُ طاعةً قد عَزَمَ على فعلِها؟! وربما أدار اللهُ في ضميرِ عبدِه عِدَّةَ طاعات، كلُّ طاعةٍ لو انفردتْ

لفعلَها العبد؛ لكمالِ رغبتِه، ولا يمكنُ فعلُ شيءٍ منها إلا بتفويتِ الأخرى، فيوَفِّقُهُ للموازنةِ بينها، وإيثارِ أفضلِها فعلًا، مع رجاءِ حصولِها جميعِها عَزْمًا ونيةً.

وألْطفُ من هذا: أنْ يُقدِّرَ تعالى لعبدِه ويبتليهِ بوجودِ أسبابِ المعصية، ويُوفِّرَ له دواعيها، وهو تعالى يعلمُ أنه لا يفعلُها؛ ليكونَ تَرْكُهُ لتلك المعصيةِ التي توفَّرَتْ أسبابُ فِعلِها مِن أكبرِ الطاعات، كما لَطَفَ بيوسفَ عليه السلام في مُراودةِ المرأة، وأحدُ السبعةِ الذين يُظلُّهمُ اللهُ في ظلِّه يومَ لا ظل إلا ظله: رجلٌ دعتْه امرأةٌ ذاتُ منصبٍ وجمال فقال: إِنِّي أَخَافُ ٱللَّهَ.

ومِن لُطفِ اللهِ بعبدِه: أنْ يُقدِّرَ خيرًا وإحسانًا مِن عبده، ويُجريَه على يدِ عبدِه الآخر، ويجعله طريقًا إلى وصولِه للمُستَحِق، فيُثيبُ اللهُ الأولَ والآخِرَ.

ومِن لُطفِ اللهِ بعبدِه: أن يُجرِيَ بشيءٍ مِن ماله شيئًا من المنافع وخيرًا لغيره؛ فيُثيبهُ من حيث لا يحتسِبُ، فمَن غَرَسَ غرساً، أو زَرَعَ زرعًا؛ فأصابت منه رُوحٌ من الأرواحِ المحترمةِ شيئًا، آجرَ اللهُ صاحبَه وهو لا يدري! خصوصًا إذا كانتْ عنده نيةٌ حسنة، وعَقَدَ مع ربِّه عقْدًا في أنه مهما تَرتّب على ماله شيءٌ من النفع، فأسألُك يا ربِّ أنْ تأجرَني، وتجعلَه قربةً لي عندك، وكذلك لو كان له بهائمُ انْتُفِعَ بدَرِّها ورُكُوبِها والحَمْلِ عليها، أو مساكنُ انْتُفِعَ بسُكناها ولو شيئًا قليلًا، أو ماعونٌ ونحوُه انْتُفِع به، أو عينٌ شُرِبَ منها، وغيرُ ذلك - ككتابٍ انْتُفِع به في تعلُّمِ شيءٍ منه، أو مُصحفٍ قُرِئ فيه - والله ذو الفضل العظيم.

ومِن لُطفِ اللهِ بعبدِه: أنْ يفتحَ له بابًا من أبوابِ الخيرِ لم يكن له على بال، وليس ذلك لقلةِ رغبتِه فيه، وإنما هو غفلةٌ منه، وذهولٌ عن ذلك الطريق، فلم يَشعُرْ إلا وقد وَجَدَ في قلبِه الداعيَ إليه، واللافتَ إليه؛ ففَرِحَ بذلك، وعَرَفَ أنها مِن أَلطافِ سيِّده، وطُرُقِه التي قَيّضَ وصولَهَا إليه؛ فصَرَفَ لها ضَميرَه، ووجّه إليها فِكْرَه، وأَدرَكَ منها ما شاء اللهُ وفَتَحَ» اهـ كلامه:.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.





المجلس الحادي عشر

واستنارت حياتهم بالقرآن [1]

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على عبدِه ورسولِه ومصطفاه، أما بعد:

فلقد تأثَّرَ سَلَفُنا الصالحُ بآياتِ الله، وكانوا حَديثي عَهْدٍ بنزولِها، وكان رسولُ اللهِ ﷺ يحيا بالقرآنِ بين أظهُرِهم، ولكنّ القرآنَ الكريمَ الذي أَخرَجَ لنا تلك النماذِجَ المشرقةَ مِن سَلَفِ الأمة؛ لم يَفْقِدْ قُدرَتَه على التّأثيرِ على قَارِئِيه في زمانِنا، ولم يُعْدَمْ مِنْ أهلِه مَن يَتلوه حَقَّ تلاوتِه؛ ويَستخرجُ منه كُنُوزَه، ويَسْتَلْهِمُ منه تَوجِيهَه، ويَسيرُ على خُطاه وهَديِه، حيث تَبقى هذه الخَيريَّةُ في أُمَّةِ الاستجابةِ إلى آخِرِ الزمانِ كما جاءَ فيما رُوي عن النبيِّ ﷺ مِن وُجوهٍ مُختلِفَةٍ: «مَثَلُ أمتي مَثَلُ المَطَرِ لا يُدرَى أولُه خيرٌ أم آخِرُه»[2]. قال شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمية -رحمه الله- في بيانِ معناه: «أيْ أنَّ في المتأخرين مَن يُشبهُ المتقدمين ويُقارِبُهم حتى يَبقى -لِقوَّةِ المُشابَهَةِ والمقارَنَةِ- لا يَدرِي الذي يَنظُرُ إليه أهذا

---

(١) للدكتورة أسماء بنت راشد الرويشد، عضو الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، والمشرفة العامة على مؤسسة آسية للاستشارات والتدريب، وموقع آسية الإلكتروني.

(٢) رواه أحمد (١٢٣٢٧) وصححه ابن حبان (٧٢٢٦)، وقال ابن عبدالبر عنه: روي من وجوه حسان، ينظر: التمهيد (٢٠/ ٢٥٣).

خيرٌ أم هذا، وإنْ كان أحدُهما في نفسِ الأمرِ خيرًا، فهذا فيه بُشرى للمتأخرين بأنّ فيهم مَن يُقارِبُ السابقين»[1].

وها هنا بعضُ المواقفِ المعاصرةِ التي تحَدَّثَ بها أصحابُها في بيانِ حالِهم مع القرآنِ تَدبُّرًا وعملا، وكيف كان أَثَرُ ذلك في تَحَوُّلِهم مِن الضلالِ إلى الهداية، ومِن اتِّباعِ الشهواتِ إلى الاجتهادِ في العبادات، لقد أَثمَرَ ذلك في قلوبِهم حلاوةً وإيمانًا لا يجِدُهما إلا مَن عاشَ مع القرآنِ كما عاشوا، وتَدبَّرَه كما تَدبَّروا!

ـ فهذا أحدُهم أَزْهَرَتْ حياتُهُ بالقرآنِ، يقول: اكتَشَفْتُ أَنَّ العلاجَ الناجحَ لكلِّ داءٍ هو القرآنُ الكريم، دائي كان ذنوبي، وضَعْفُ سيطرتي على شهواتِ نفسي، حتى أَوْصَلني ذلك إلى حدِّ كُرْهِ ذاتي، ولم يكنْ عُمْري قد تجاوَزَ السابِعةَ عشرةَ بعد!

وقُبَيْلَ رمضانَ بأيام؛ سمعتُ كَلِماتٍ ناصحةٍ تَحُثُّ على استثمارِ فرصةِ رمضانَ، وجَعْلِهِ نقطةَ انطلاقٍ لحياةٍ جديدةٍ مِن خلالِ تَدبُّرِ القرآنِ الكريم، فامتثلتُ لهذه الموعظةِ وقَرَأْتُهُ بخشوعٍ وتدبُّرٍ، فأحسستُ به يَغْسِلُ كُلَّ رُكامِ الآثامِ بِداخِلي، وبَدَأْتُ أُدوِّنُ كلَّ آيةٍ أَتَأَثَّرُ بها في دَفترٍ خاصٍّ! وأَبحثُ عن تفسيرِها، فأقرؤه بعد ذلك فيزيدُ إيماني وأَهْنأُ بالسكينة، وأَزْهَرَت حياتي بالقرآن، والحمدُ للهِ الذي بنعمتِه تتِمُّ الصالحات.

---

(١) ينظر: مجموع الفتاوى (١١/ ٣٧١).

ـ وآخَرُ استوقفتْه آيةٌ مِن سورةِ الأنفال، إنها قولُ الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾[١]، فيقولُ: بحثتُ عن تفسيرِها وتأثَّرتُ بهِ جدًا، فأصْبَحَتْ بَعدَ ذلك المقياسَ والمحكَّ لكلِّ موقفٍ يمرُّ بي: هل أنا في المسارِ الصحيح، أم حِدْتُ عن الطريق؟ فتَسْتَحِثُّني للإسراعِ في الاختيار، ففي الآيةِ دعوةٌ بنداءِ الإيمان، وأمرٌ بالمسارعةِ إلى طاعةِ كلِّ أمرٍ مِن اللهِ ورسولِه؛ خشيةَ أن يُحالَ بينكَ وبين قلبِك إذا توانيتَ أو تردَّدتَ، ثم تتَمنى بعد ذلك الوصولَ إليه فلا تستطيع!.

ـ وهذه فَتاةٌ عَرَفَتْ طَعْمَ الحياةِ الحقيقيَّةِ يومَ تَدبَّرتْ كلامَ اللهِ فأحبَّتْه وآثَرَتْ مَحَابَّه على كلِّ شهواتها، فتقول: مَرَرْتُ ذاتَ يوم –وأنا أقرأُ في كتابِ الله– بآيةٍ لَكأنَّني أقرؤها لأوَّلِ مَرّة، وقَفْتُ هذه المرة أمامَها وُقوفًا طويلا، انتهى بي إلى بكاءٍ شديد، ولَّدَ في أعماقِي إصرارًا كبيرًا، وقوةً لا تقفُ عند حدٍّ في تغييرِ واقعِ نفسي وأُمَّتي؛ ولو خُطوةً واحدةً إلى الأمام، لقد أَحْسَسْتُ بقَشْعَريرةٍ لا تزالُ تَسري في أَوصالي كلّما ردَّدتُها، وكأنّها تُناديني قائلةً: غَيِّــري وإلّا تُغَيَّري! إنها قولُهُ تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[٢]، إنه فَضْلُ اللهِ يُؤتيه

---

(١) الأنفال: ٦٤.
(٢) المائدة: ٥٤.



مَن يَشاء، وإني لأَسأَلُ اللهَ أَن أَكونَ مِمَّن يُؤتاه بِمنَّتِهِ ورحمتِهِ، وأنْ نَكونَ مِمَّن يَستعمِلُهم سبحانه في طاعتِهِ وخِدمةِ دينِه، لا مِمَّن يَستبدِلُهم... آمين.

- فتاةٌ أُخرى تُحدِّثُ عن آيةٍ غَيَّرتْ حياتَها، فتقول: قَرأتُ ذات يومٍ آيةً غَيرت مَجْرَى حياتي كلَّه، وهي قولُهُ تعالى: ﴿ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ ﴾[1]، مَعصيةُ اللهِ عز وجل ثلاثَ سنواتٍ كاملة، حَاوَلْتُ أَنْ أَتْرُكَ المعصيةَ لكنني ما استطعت! وجَلَسْتُ يومًا أَبكي بِشِدَّة، وأُناجِي ربي، فسمعتُ الآيةَ السابقة، فانشَرَحَ لها صدري، وتَمَلَّكني الحياءُ مِن ربي عز وجل، وسَألتُ نفسي حينها بصدقٍ: هل أَقْبَلُ أنْ يَرَاني أَبي أو أُمِّي أو أيُّ أَحَدٍ في هذه الدنيا على ما أنا فيه؟ أو حتى أنْ يَسمَعوا بما أَفْعَل؟

وكان جوابي الأكيد لِنفسي: لا، وأَلْفُ لا...، فإنْ كنتُ قد استحييتُ مِن العبادِ، فكيف بِرَبِّ العبادِ وهو المطَّلعُ على كلِّ شيء! فاستحييتُ مِن نَظَرِهِ سبحانه إليَّ وأنا أَعصِيه، وقَرَّرتُ أنْ أَتْرِكَ ما أنا فيه، ومَن تَرَكَ شيئًا للهِ عَوَّضَه اللهُ خيرًا منه، وبمنَّةٍ مِن اللهِ وفَضلٍ تركتُ المعصية، وها أنا أَنعَمُ بالسعادةِ بِفضلِ ربي مُنذُ سنوات.

---

(١) النساء: ١٠٨.

- ما أَعظَمَ أَثَر هذا القرآنِ في النفوسِ المؤمنةِ! فهذا مُتدَبِّرٌ يقول: كم أَثَّرَ فيَّ قولُهُ سبحانه: ﴿أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾[1]، لقد صارَتْ أمامَ عيني كلَّما هَمَمْتُ بمعصية، أَتَخَيَّلُ أنَّ اللهَ -سبحانه- يُخاطِبني بها فأَرْتَدِع، فها هو القرآنُ بين أَظهرِنا يُتلى آناءَ الليلِ والنهار، نُورًا يَمحُو ظلماتِ الهوى، لا يَترُكُ لأَحدٍ على اللهِ حُجَّة، فلْنَستَمِع لآياتِه، ونَتَّعظ بها قبلَ أنْ يُقالَ لنا ﴿أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾.

- وهذا أحدُهُم يقول: احتاجَتْ أُمِّي في يوم مِن الأيامِ لِشيءٍ يُكلِّفُ بعضَ المال، وكُنتُ أَلْمُسُ رَغبتَها فيه وحاجَتَها إليه، وكان لديَّ بعضُ المالِ الذي رَصَدتُه لحاجَةٍ لي، لكنَّه قَد يَقضي حاجةَ أُمّي، ومَرَّ في نَفسي خاطر: لِمَ لا أُقدِّمُ حاجتَها على حاجتي؟ أَلَمْ يأمرْنيَ اللهُ بِبرِّها؟ ورَاوَدَتْني نفسي فصارعتُها؛ حتى قَرَّرتُ تقديمَ حاجتِها على حاجتي مهما كَلَّفَني ذلك، وتَذَكَّرْتُ قولَه تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾[2]، قَضيتُ حاجتَها، وكَلفني ذلك مَبلغًا مِن المال، كُلِّي أَمَلٌ في رِضاها بَعدَ رِضا الله، ولَمَّا فاجَأْتُها بِالأَمرِ بَكَتْ من شِدَّة الفَرَح، فانْشَرَحَ صَدري لِمَا وَفَّقنيَ اللهُ إليه مِن بِرِّها وإِدخالِ السرورِ عليها.

---

(١) المؤمنون: ١٠٥.
(٢) الحديد: ١١.

العجيبُ في الأمرِ أنَّه في اليوم التالي لِقضائي حاجتَها؛ تمَّ تحويلُ مَبلغٍ لحسابي مُكافأةً مِن جِهةٍ رسمية، والأَعجبُ أنها كانت بمعدَّلِ الضِّعفِ وزيادة، فبَكَيْتُ حينها؛ لأنني تَذَكَّرْتُ مَوعودَ اللهِ عز وجل: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ﴾.

إنهم جميعًا عاشوا مع الآياتِ بتَفَاعُلٍ! حتى سَرَت الروحُ في قلوبِهم، وشَعَّتْ أنوارُ القرآنِ في نفوسِهم، إنّه الحقُّ في قولِه تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا ﴾[(١)].

هذه -أيها المؤمنون- نماذجُ مِن أحوالِ أُناسٍ يعيشون في عصرِنا، ويتأثرون بما حولِهم، عاشوا مع آيةٍ فنَقَلَتهم إلى عالَمٍ آخرَ مِن السعادة، وحياةِ القلوب، التي هي الحياةُ الحقيقة. هذا حالُهم مع آية، فكيف بِمَن عَاشَ مع القرآنِ طِيلةَ حياتِه؟!

اللهم اجعل القرآنَ ربيعَ قلوبِنا، ونورَ صدورِنا، وجلاءَ أحزانِنا، وذهابَ همومِنا، واغفر اللهم لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



---

(١) الأنعام: ١٢٢.



المجلس الثاني عشر

كيف نقرأ ونستمع لسورة النساء؟ (١)

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على عبدِهِ ورسولِهِ ومصطفاه، أما بعد:

فإنَّ الحديثَ عن تَدبُّرِ القرآنِ الكريم حديثٌ ذو شُجُون، والكلامُ فيه له شُعَبٌ، وتفاصيلُ، ومناهج. وإنَّ مِن الأساليبِ التي تُعينُ على تَقريبِ فهم هذه العبادة العظيمة -عبادة التدبر- أن يُذْكَرَ نموذجٌ يُحْتَذى، ويُقاسُ عليه في كَيفيةِ قِراءةِ القرآنِ قراءةً تدبُّرية.

ولَعلَّنا في هذا المجلسِ نَضرِبُ لذلك مَثَلًا بسورةٍ عظيمةٍ من السبعِ الطوال، المليئةِ بالأحكام، تِلكم هي سورةُ النساء، نُحاوِلُ أنْ نُجيبَ على هذا السؤالِ: كيف نَقرَأُ ونَستَمِعُ سورةَ النساء؟.

سورةُ النساءِ -أيها المؤمنون- عامَّتُها في «حقوقِ الضعفاء»: المرأةُ، واليتيمُ، واليتيمةُ، والسفيهُ، والوارثُ الضعيف، والذي يُغلَب في التجارة، والموالي (الخدم)، والمظلومُ، والمريضُ، والمسافرُ، والخائفُ، والمُستَضْعَفُ في

(١) للشيخ الدكتور عصام بن صالح العويّد، عضو الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، وعضو هيئة التدريس في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، بالرياض.

الأرض، والكلالةُ ونحوُهم؛ لذا لم يَأْمُرِ اللهُ عز وجل بالقِسطِ (العدل) في شيءٍ مِن القرآن كما أَمَرَ به في سورتي النساء والمائدة، وبعضُ آياتِها قد يحتاجُ ربطُها بهذا المعنى إلى تَكَلُّف وقد نُهينا عنه كما في البخاري عن عمر رضي الله عنه[١]، لكن مَعاقِدُها تدورُ على القِسْطِ والعَدْل:

-ففي مَطلعِها نَقرأُ قولَه تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾[٢]، وقولَه: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾[٣]، وقولَه: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗ﴾[٤]، وقولَه: ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾[٥].

-وفي وَسَطِها نقرأُ قولَه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ﴾[٦]، وقولَه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾[٧]، وقولَه: ﴿وَلِكُلّٖ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ﴾[٨]،

---

(١) البخاري (٧٢٩٣).
(٢) النساء: ٢.
(٣) النساء: ٣.
(٤) النساء: ٤.
(٥) النساء: ٥.
(٦) النساء: ١٩.
(٧) النساء: ٢٨.
(٨) النساء: ٣٣.

وقولَه: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ... فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾[1]، وقولَه: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ﴾[2].

ونقرأ في أواخِرِها: أنَّ الجهادَ فيها مِن أَجْلِ الضُّعَفاء: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾[3].

ونقرأ فيها صلاةَ الخوف: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ﴾ الآيات[4].

وتكَرَّرَ الأَمرُ فيها بالعدلِ مع الضعفاء، والتخويفِ باطِّلاعِ اللهِ وكمالِ علمِه بالخفايا، كما قال سبحانه: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[5].

---

(١) النساء: ٣٤.

(٢) النساء: ٤٣.

(٣) النساء: ٧٥.

(٤) النساء: ١٠٢.

(٥) النساء: ١٣٥.

- وخُتِمت «النساءُ» بآيةِ الكَلالَة ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾[1] والكلالةُ: مَن لا وَلَدَ له ولا وَالِد، وهذا نوعُ ضَعفٍ في المالِ ظاهر.

فإنْ شَرَعْتَ -أيها الموفق- في قراءتِها أو سماعِها؛ فاعرِضْ نفسَك عليها، كيف أنت في إِنصافِك مِن نفسِك وأَدائِك لِحَقِّ الضعيف، أو انتصارِك له حين يُظلَم، أَيًّا كان:

- المرأةُ؛ سواءً كانت: أُمًّا أو بنتًا أو أختًا أو زوجةً أو قريبةً أو بعيدة، مُسلمةً أو كافرة.

- اليتيمُ واليتيمةُ أو اللقِيطُ واللقيطةُ؛ حين يُظلمون مِن الأفرادِ أو المجتمع.

- الوارِثُ أو الوارِثةُ حُرِموا مِن مِيراثِهم.

- سائقٌ أو خادِمةٌ أو عامل؛ لم يَستَلِموا حُقوقَهم مِن أَشْهُرٍ مُتطاوِلة.

- مَظلومٌ مِن الناسِ أو مِن الحكومات.

- مَرِيضٌ لم يجد مُستشفى يُؤويه.

---

(١) النساء: ١٧٦.

- خائفٌ مُستضعَفٌ مِن جبّارٍ في الأرض.

وغيرُهم كثيرٌ، ثم تأمَّلْ بَعضًا مِن تهديدِ اللهِ للباغين على حقوقِ الضعفاء:

- ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾[1]!

- وبَعدَ آيةِ المواريثِ وَعَدَ وتوَعَّد سبحانه: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[2].

-وقال في المَهرِ: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾[3].

-وقال في شَأْنِ الزّوجةِ وظلمِها: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾[4].

---

(١) النساء: ٦.
(٢) النساء: ١٣، ١٤.
(٣) النساء: ٢١.
(٤) النساء: ٣٤.

-وقال في الأموالِ وظُلمِ الناسِ فيها: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[1]

هذا -أيها المؤمنون- بَعضُ حديثِ سورةِ «النساء» إلينا، جَعلَها اللهُ حجةً لنا لا علينا، وغَفَر لنا ولوالدينا، ولجميع المسلمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



---

(١) النساء: ١٦٠ - ١٦١.



المجلس الثالث عشر

﴿ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ ﴾[1]

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على عبدِه ورسولِه ومصطفاه، أما بعد:

فتَمُرُّ بالأُمّةِ والفَرْدِ أوقاتٌ من الانتصار، ومثلُها من الانكسار، وأوقاتٌ من الفرح، وأُخرى من الحزن، فيُسَرّ بالأولى، ويَحزَنُ للثانية، ورُبما بَلَغَت عند البعضِ حَدَّ اليأسِ، أو إساءة الظنِّ باللهِ وبإخوانِه المسلمين، فأَورَثَه ذلك قُعودًا وإحباطًا.

ولا يَقتَصِرُ هذا الأمرُ على أفرادِ الناسِ أو آحادِهم و عوامِّهم؛ بل رُبما يَشمَلُ فئاتٍ كثيرةً من المجتمع؛ من علمائِه أوقادتِه أو غيرِهم، وهي طبيعةٌ حَدَّثَنا عنها القرآنُ الكريمُ في مواضِعَ كثيرة، لِنعالجَها ونَتَبَصَّرَ الطريقَ إزاءَها.

وإذا عُدنا إلى قِصةِ الأَحْزاب؛ ستَتَذَكَّر أنّ الأحزابَ اجتمعتْ على النبيِّ ﷺ من خارجِ المدينةِ وداخلِها؛ كقريشٍ ويهودٍ والمنافقين، ولكن لِنتأمَّل وَصْفَ القرآنِ

(١) للدكتور محمد بن مصطفى السيد، عضو مجلس إدارة الهيئة العالمية لتدبر القرآن.

لهذه الحال، إذ يقول: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾[1]، فتأمَّل التعبيرَ بقوله: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾.

ثم يُعيدُ التاريخُ نَفسَه بَعدَ أكثرَ مِن ستةِ قرون من حادثة الأحزاب، حين هَجَمَ التَّتارُ على بلادِ الإسلامِ، فيأتي الإمامُ ابنُ الأثير، وهو أحدُ كِبار المؤرِّخين فيقول: «لقد بَقِيتُ عِدَّةَ سنينَ مُعْرِضًا عن ذِكر هذه الحادثةِ -يقصد دخول التتارِ وإفسادَهم وقتلَهم في بلاد المسلمين- استعظامًا لها، كارِهًا لِذكرِها، فأنا أُقدِّم رِجْلًا، وأُؤخِّرُ أخرى، فمن يَسهُل عليه نعيُ الإسلام والمسلمين، ومَن الذي يَهُون عليه ذِكرُ ذلك، فيا لَيتَ أُمِّي لم تَلِدْني، ويا ليتني مِتُّ قبل هذا وكنتُ نَسْيًا مَنسيًّا»[2].

تأمَّلوا معي هذه الروحَ التي غَلَبت عليه أثناءَ تَسطِيرِ هذه الكلمات، وهي من جِهةٍ تُحمدُ له على حُزنِهِ على ما أَصابَ الإسلامَ والمسلمين، لكن لا تُحمدُ له تلك النظرةُ التشاؤميةُ التي عاشَها ونَقلَها إلى كلِّ من قَرَأَ كلماتِه هذه، ولكم أنْ تَتَساءلوا هل ماتَ الإسلامُ بعدَ سقوط بغداده، أَمْ أنَّه اتَّسَعَ وانتَشَرَ، ووَصَل إلى أماكِنَ لم يَصِلْ إليها مِن قبل؟

---

(١) الأحزاب: ١٠، ١١.
(٢) «الكامل في التاريخ» لابن الأثير ١٠/ ٣٣٣.

بعضُ الناسِ -وبعضُهم فُضَلاء- قد يَقعُ -مِن حيث لا يشعر- فيما ذَمَّ اللهُ به طائفةً مِن المنافقين، وهم الذين قال الله عنهم: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾[1]، كما يَغيبُ عنه الحديثُ القُدسي: «أنا عند حسن ظن عبدي بي، فليظنّ بي ما شاء»[2].

قال ابن القيّم رحمه الله: «وإنما كان هذا ظنُّ السوءِ وظنُّ الجاهليةِ المنسوب إلى أهل الجهل، وظنّ غيرِ الحق؛ لأنه ظنُّ غير ما يليقُ بأسمائِه الحسنى، وصفاتِه العليا، وذاتِه المبرَّأة مِن كلِّ عيبٍ وسوء، بخلافِ ما يليقُ بحكمتِه وحمدِه، وتفرّدِه بالربوبية والألوهية، وما يليقُ بوعدِه الصادقِ الذي لا يُخلِفُه، وبكلمتِه التي سَبَقت لِرُسُلِهِ أنه يَنصرُهم ولا يخذلُهم، ولجندِه بأنهم هم الغالبون، فمن ظنّ بأنه لا ينصرُ رسُولَه ولا يُتِمّ أمرَه، ولا يؤيدُه ويؤيدُ حِزبَه ويُعلِيهم ويُظفِرُهم بأعدائِه، ويُظهِرُهم عليهم؛ فقد ظَنّ باللهِ ظَنَّ السوء»[3].

إذن فنحن مأمورون بحُسْنِ الظنّ بربنا، ومأمورون بالوثوقِ بحكمتِهِ وقدرتِهِ التي نجهَلُ بعضَها، ويغيبُ عنا بعضُها لمحدودية عقولنا فلا نستوعبها، وتَظهرُ لنا آثارُ بعضِها في الحياةِ والكونِ والسنن، وحين نَشعُرُ بذلك الشعور؛ فإنه سيقوُدنا إلى الرضى والتسليم -بلا شك-، إضافةً إلى قدرٍ جيّدٍ مِن الراحةِ النفسيةِ؛ التي تُعينُنا على مواجهةِ مصائبِ الحياةِ ومصاعِبِها، وعندها ترتاحُ نفوسُنا، وتسكُنُ قلوبُنا.

---

(١) آل عمران: ١٥٤.

(٢) رواه البخاري (٧٥٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) عن أبي هريرة -رضي الله عنه-: بلفظ: (أنا عند ظن عبدي بي).

(٣) «زاد المعاد» ٣/ ٢٠٥.

وحتى نَستَشعِر أهميةَ هذا الأمر، لِنستمعَ إلى حديثِ جابرٍ بنِ عبدِ الله رضي الله عنه، قال: سمعت رسولَ اللهِ ﷺ قبل موتِه بثلاثةِ أيامٍ يقول: «لا يموتنّ أحدُكم إلّا وهو يُحسِنُ الظنَّ باللهِ عز وجلّ»(١).

إنَّ حسْنَ الظنّ باللهِ شأنُ المؤمنِ الموفَّقِ الواثقِ بربِّه، وهو الذي يجعلُه مُتفائِلًا في حياتِه، يَسيرُ باتجاه العملِ الفاعلِ المثمرِ البنّاء، مُتخَلِّيًا عن اليأسِ والإِحباط، وهو ما سوف يُساعِدُه على الثبات أَمام العقباتِ التي تَعترضُه في حياتِه وعملِه ودعوتِه.

وبَعدَ أَنْ يُحسِنَ المرءُ الظنَّ بربِّه؛ فإنّه مأمورٌ بإحسانِ الظنِّ بإخوانه المسلمين، ولْنَستمعَ سَويًّا إلى قولَ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾(٢)، ولْنستمعَ أيضًا إلى قولَ النبي ﷺ: «إياكم والظنَّ فإن الظنَّ أكذبُ الحديث»(٣).

إنَّ حُسنَ الظنّ بالمسلمين يُورِثُ الأُلفةَ والمحبةَ بينهم، وفي المقابل؛ فإنَّ سوءَ الظنِّ يورثُ العداوةَ والبغضاءَ والحسد، الأمرَ الذي يدفعُ المرءَ إلى ارتكابِ جرائمَ وقبائحَ ليس لها حدّ، ولذلك جاءَ في تمام الآية: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾(٤)، كما جاء في تمام

---

(١) رواه مسلم (٢٨٧٧).
(٢) الحجرات: ١٢.
(٣) رواه البخاري (٥١٤٣)، ومسلم (٢٥٦٣).
(٤) الحجرات: ١٢.

الحديث: «ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا»[1].

لقد قَرَّر أهلُ العلمِ أنّ البُغضَ والحَسَدَ يَنشآنِ أولَ ما يَنشآن عن سوءِ الظنِّ بالآخرين، حيث يَتأول المرءُ أفعالَ إخوانه أَيًّا كانت أَسوأَ تَأويل، وهذا واضحٌ ومُشاهدٌ، فكم يرى المرءُ أقوامًا أَساؤوا الظنَّ بإخوانهم؛ فَنَشأَ عن ذلك ما لا يخفى من الحقدِ والحسدِ والغِيبةِ والنميمة، ولو أنهم أَحسَنوا الظنَّ بهم لكانَ الأمرُ أهونَ من ذلك بكثيرٍ، ولَمَا احتاجوا كلَّ ذلك، بل باتوا في راحةٍ واطمئنان.

كم هُدِمتْ بيوتٌ وأُسَر، بل كَم فُضّت عقودٌ وشراكات، وانهارت أعمالٌ؛ بسببٍ مِن سوءِ الظنّ، والشيطانُ واقفٌ يترصَّدُ ليوسِّعَ الشّرْخَ ويزيدَ في العداوة.

هذا؛ وإنّ حُسنَ الظنّ ليس مطلوبًا مع كل أحدٍ، فربما يأتي مع أُناسٍ يجبُ أن لا نحسنَ الظنَّ بهم، فيغترّ بهم وبأعمالهم المرء، كحالِ بعضِ المنافقين، ففي حديثِ عائشةَ رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما أظنّ فلانًا وفلانًا يعرفان من أمرِنا شيئًا»، قال الليث: «كانا رجلين من المنافقين»[2].

قال ابن حجر رحمه الله: «إنَّ مثلَ هذا الذي وَقَعَ في الحديث ليس من الظنِّ المنهيِّ عنه، لأنه في مَقَامِ التحذيرِ مِن مِثلِ مَن كان حالُه كحالِ الرجلين،

---

(١) التخريج السابق.
(٢) البخاري (٦٠٦٧).

والنهيُ إنما هو عن الظنِّ السوءِ بالمسلم السالم في دينِه وعرضِه، وقد قال ابن عمر: إنّا كنّا إذا فقدْنا الرجلَ في عِشاءِ الآخرةِ أَسأْنا به الظنّ، ومعناه: أنه لا يغيب إلا لأَمْرٍ سيء، إما في بدنِه، وإما في دينِه»[1].

إنّ هذا الأمرَ يقودُنا إلى أنْ لا نَكونَ أَغرارًا تُلبَّس علينا الأمور، فيَستغلّنا البعضُ تحت حجةِ حُسْنِ الظنِّ بالآخَرين، فيُمرِّر علينا -وتحت نظرِنا وسمعِنا- ما يريدُ من أعمالٍ أو قراراتٍ أو أفكارٍ أو أخبار، بل المطلوبُ منا التمحيصُ؛ خاصّةً مع من لا تَظهرُ عدالتُه أو لا يظهرُ عدلُه، والتدقيقُ في الأمور، ومتابعتُها جيدًا، حتى لا نقعَ في شَراكِ هؤلاء.

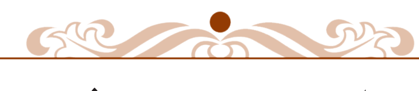
إننا إذ نتحدّثُ عن ذلك؛ نطرحُ الأمرَ من جانبيه، والمسلمُ مطلوبٌ منه ألّا يَفقِدَ حُسْنَ الظنِّ بالمسلمين، كما أنّه مَطلوبٌ منه ألا يحسنَ الظنَّ بكلِّ أحدٍ ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾[2].

اللهم طهِّر قلوبَنا مِن أمراضِها، وارزقنا القصدَ في الفقرِ والغنى، واغفر اللهم لنا ولوالدينا ولجميعِ المسلمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



(١) فتح الباري ١٠/ ٤٨٦.
(٢) الفرقان: ٦٧.





المجلس الرابع عشر

من أسرار قراءة بعض السور يوم الجمعة [(١)]

يَمُرُّ على المؤمنِ يومَ الجمعةِ عددٌ من السُّوَر، إمّا أنْ يقرأَها بنفسِه كسورةِ الكهف، أو يسمَعُها من إمامِ المسجدِ في صلاةِ الفجر أو الجمعة، أو يسمَعُها في خطبةِ الجمعة. وعند حصرِ هذه السُّورِ وَجَدْتُ أنها ثمان سور، منها المكيُّ وهي سورةُ السجدة و (ق) والكهف والأعلى والغاشية، ومنها المدنيُّ كالجمعةِ والمنافقون والإنسان، فهذه ثمان سور من السور التي كان النبي ﷺ يقرأُ بها ويحثُّ على القراءةِ بها يومَ الجمعة [(٢)].

وإيمانًا مِنّا بأنّ كلَّ عملٍ يأمُرُ بهِ اللهُ أو يأمُرُ به رسولُه ﷺ؛ يشتَمِلُ على حِكَمٍ ومَعَانٍ يَظهرُ بعضُها للمتأمِّلِ المتدبِّرِ لأوّلِ وهلة، ويَحتاجُ بعضُها إلى

---

(١) للدكتور عبد الرحمن بن معاضة الشهري، عضو مجلس الهيئة العالمية لتدبر القرآن، أستاذ القرآن وعلومه المشارك بجامعة الملك سعود.

(٢) عن ابن عباس أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة ﴿الٓمٓ ① تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ (سورة السجدة) و﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ (سورة الإنسان)، وأن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يقرأ في صلاة الجمعة سورة الجمعة والمنافقين. أخرجه مسلم (٨٧٩).
وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يَقْرَأُ فِي الْجُمُعَةِ، فِي صَلاَةِ الْفَجْرِ، آلَمَ تَنْزِيلُ، السَّجْدَةَ، وَ هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ. أخرجه البخاري (٨٩١).

إِعمالِ الفكرِ لاستخراجِها واستنباطِها، فسنحاولُ التدبُّرَ في هذه السورِ الثمان؛ لنرى شيئًا من أسرارِ هذه المزية والفضيلةِ التي اختصت بها.

وهذه السُّورُ تَشتَرِكُ في أنها تُذكِّرُ الإنسانَ بقضايا كبرى في حياتِه يجبُ أنْ تُكرَّر على سَمعِ المؤمنِ باستمرار، بِحَيثُ تَستَقِرُّ في نفسِه استقرارًا ينفي كلَّ شك، وتُشَكِّلُ بتَكْرارِها وعيَ المؤمنِ الذي يُواظِبُ على حضورِ هذه الصلواتِ مع الجماعة.

أولًا: سورة الكهف.

أَغلبُ المتدبِّرين لهذه السورةِ يرون أنَّ المقصدَ الذي تدورُ حولَه آياتُ هذه السورةِ: هو الإرشادُ إلى كيفيةِ النجاةِ والعصمةِ مِن الفتنِ بأنواعها، وقد وَرَدَ في السورةِ أربعةُ أمثلةٍ للفتنِ؛ تُعتبَرُ مِن أعظمِ الفتنِ التي يُبتلى بها المرءُ في حياته:

- فتنةُ الدينِ في قصةِ أصحابِ الكهف، وكيف اعتصمَ الفتيةُ بالله، وفَرُّوا من كفر قومهم، فعصمَهم اللهُ ونجّاهم.
- فتنةُ المالِ في قصةِ صاحبِ الجنتين، وكيف فَشِلَ الرجلُ في الاختبارِ فمَحَقَ اللهُ مالَه.
- فتنةُ العلمِ في قصةِ الخضرِ مع موسى عليه الصلاة والسلام، وكيف شَكَرَ الخضر هذه النعمة.
- فتنةُ المُلْكِ في قصةِ ذي القرنين، وكيف نجَحَ ذو القرنين في هذا الابتلاء بشكرِ هذه النعمةِ العظيمةِ، واستعملَها في طاعةِ الله.

وهذه المعاني العظيمةُ يَحتاجُ المؤمنُ إلى تذكُّرها باستمرار، فشُرِعَتْ قراءتُها كُلَّ جُمعة. وفي اسمها ما يدلُّ على موضوعِها ومَقصدِها، وهو (الكهف)؛ فهو عصمةٌ مادّيةٌ لمن يلجأُ إليه عادةً، وكذلك معاني وآياتُ هذه السورةِ عصمةٌ لَمن قرأها وتدبَّرَها من هذه الفتن، ومِن أعظمِ الفتنِ فتنةُ الدَّجّال، ولذلك قال النبي ﷺ: «فمن أدركه منكم -أي الدجّال-، فليقرأ عليه فواتِحَ سورةِ الكهف»[١] وفي رواية: «من قرأ العشرَ الأواخِرَ من سورةِ الكهفِ فإنه عصمةٌ له من الدجال»[٢]. وحذَّرَ اللهُ من الشيطانِ في أثناءِ هذهِ السورةِ وأشارَ إلى مخالفتهِ للإنسانِ وعداوتِه له في قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾[٣].

ثانيًا: سورة السجدة.

تَدورُ آياتُها حولَ بيانِ حقيقةِ الخَلقِ وأحوالِ الإنسانِ في الدنيا والآخرة، ببيانٍ شافٍ كافٍ، يُبعِدُ من نفسِ الإنسانِ كلَّ فِكرةٍ إلحاديةٍ تُحاوِلُ التسلُّلَ إلى ذِهنِ المؤمنِ، في زحامِ الأفكارِ وعَولمةِ الثقافات. فهي تُفصِّل كيف خلقَ اللهُ السمواتِ والأرضَ في ستةِ أيام، وكيف خلقَ الإنسانَ الأوّلَ مِن طين، وخلقَ

---

(١) صحيح مسلم (٢٩٣٦).
(٢) رواه النسائي في عمل اليوم والليلة (٩٤٨).
(٣) الكهف: ٥٠.

سُلالتَه مِن ماءٍ مهين، في تفصيلٍ رائعٍ يَطمئنُّ له القلبُ المؤمن، ويَزدادُ تعلُّقُه بربِّه، ولا يملك إلا أنْ يَخِرَّ ساجدًا بين يديه، ولذلك سُمِّيت سورةُ السجدة، وشُرِعَ سجودُ التلاوةِ عند الآيةِ الخامسةَ عشرَ من آياتها.

ثالثًا: سورة ق.

سورة (ق) كان النبي ﷺ يقرؤها في الخطبةِ يومَ الجمعة في أحيانٍ كثيرة، وقد ذَكَرتْ أمُّ هشام بنتُ حارثة رضي الله عنها حديثًا يدلُّ على كثرةِ تَكْرارِ النبي ﷺ لقراءةِ سورة (ق) في خُطبة الجمعة، حيث قالت: وما أَخَذْتُ ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ إلا على لسانِ رسول الله - ﷺ - كان يقرؤها كلَّ يوم جمعةٍ على المنبرِ إذا خَطَبَ الناسَ[1]. وآياتُها تدورُ على بيانِ حقيقةِ البعثِ واليومِ الآخر، مع الاستدلال على اليومِ الآخرِ والبعثِ بعد الموت، والاستدلال على توحيدِ الألوهيةِ بتوحيدِ الربوبية.

رابعًا: سورة الجمعة.

سميت بسورةِ الجمعةِ لمجيءِ ذِكرِ يوم الجمعةِ فيها، وهي تؤكِّدُ على تذكيرِ الأُمةِ في هذا اليوم العظيم؛ بنعمةِ اللهِ عليها بإرسالِه محمدًا عليه الصلاةُ والسلام، وأنّ اللهَ قد جعلَه هدايةً لها بعد الضلالِ المبينِ الذي كانت فيه، ولا شكّ أنَّ هذا من أعظمِ القضايا في حياةِ المؤمن، التي لا ينبغي أنْ تغيبَ عن ذهنِه، ولذلك شُرِعتْ قراءتُها في صلاةِ الجمعة.

---

(١) رواه مسلم (٣٧٨).

خامسًا: سورة المنافقون.

تؤكِّدُ السورةُ على كشفِ المنافقين، وبيانِ حقيقتِهم، وأبرزِ صفاتهم، لتكونَ بمثابةِ تحذيرٍ أسبوعيٍّ؛ مِن طائفةٍ خطيرةٍ تَهدِمُ الإسلامَ مِن الداخلِ، وتُوضِّحُ للمؤمنين أنَّ حصونَنا مهددةٌ من داخلِها بهؤلاءِ المنافقين! ولعِظَمِ خَطَرِهم وعدمِ انقطاعِهم مِن المجتمعِ، منذُ عهدِ النبي ﷺ حتى اليوم؛ شُرِعَ التحذيرُ منهم بشكلٍ متكررٍ، بتلاوةِ هذه السورةِ في صلاةِ الجمعة.

سادسًا: سورة الإنسان.

تؤكِّدُ السورةُ على تذكيرِ الإنسانِ بأصلِ خِلقتِه، وتُبينُ عاقبتَه ومصيرَه في الآخرة؛ ليكونَ على حذرٍ وعلى بينةٍ من أمرِه، فقد فصَّلَ اللهُ في السورةِ كيف بَدأَ خلقَ الإنسان، وكيف انقسمَ الناسُ إلى مؤمنٍ شاكرٍ، وكافرٍ جاحدٍ، ومصيرَ كلٍّ من الفريقين. وأطالَ في بيانِ مصيرِ أهلِ الجنةِ تشويقًا وتحفيزًا للمؤمنين. وأشارَ فيها إلى نعمةِ نزولِ القرآن، ووجوبِ الصبرِ على العملِ به.

سابعًا: سورة الأعلى.

المقصدُ من هذه السورةِ: تأكيدُ تعلُّقِ النفوسِ باللهِ العظيمِ الأعلى، والحرص على الآخرةِ ونعيمِها، وعدمِ التعلُّقِ بالدنيا وبهرجِها الزائلِ، وهي تحملُ رسالةً قصيرةً مُركَّزةً، تُؤكِّدُ للمؤمنِ أنَّ العُلُوَّ الحقيقيَّ هو في طاعةِ اللهِ وخشيته ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾، وأنَّ الشقاءَ والخسرانَ في اجتنابِ هذه النصيحةِ والتعلُّقِ بالدنيا ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ⑪ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾. لاحِظْ هنا كيف وَصَفَ الشقيَّ بقوله: ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾[1]، وهذه الحقيقةُ الكبرى ينبغي أن

---

(١) الأعلى: ١٠ – ١٢.

تكون نُصبَ عينيَّ المؤمنِ في حياتِه كلِّها، تُكرَّرُ عليه كلَّ حين، ولذلك فهي تُقرأُ في الركعةِ الأولى من صلاةِ الجمعة، وصلاةِ الاستسقاء، وصلاةِ العيد.

ثامنًا: سورة الغاشية.

تُذكِّرُ هذه السورةُ العظيمةُ بقدرةِ اللهِ العظيمة، وأصنافِ الناسِ يومَ القيامة، ومصيرِهم في الآخرة. وهي هي! المعاني الكبرى المصيريةُ، التي لا ينبغي أنْ تغيبَ عن المؤمن أبدًا، ويحتاجُ إلى تعلُّمِها وتذكُّرِها دومًا. ولذلك شُرِعتْ قراءتُها في الركعةِ الثانيةِ من صلاةِ الجمعةِ والعيدِ والاستسقاء.

ونلاحظُ مِن الأمورِ المشتَركةِ بين هذه السُّورِ الثمان ما يلي:

١- تأكيدُها على القضايا الكبرى في حياةِ البشر.

بدء خَلْقِ السمواتِ والأرض، وبدء خلقِ الإنسان، والمنهج الصحيح في الدنيا، والمصير في الآخرة. وهي قضايا ضَلَّتْ فيها البشريةُ ضلالًا مبينًا، لا يعرفه إلا من قرأ في كُتُبِ الضالين، وعَرَفَ كيف ضَلَّ سعيُهم في الحياةِ الدنيا، وكيف هدانا اللهُ بهذا القرآنِ العظيم.

٢- تَكرارُ آياتِ التذكيرِ والذِّكرِ والذكرى في السور.

في سورةِ الكهفِ في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾[1]، وقولِه في آيةٍ عظيمةٍ مِحْوَريةٍ في منهجِ المؤمنِ في عبادتِه للهِ وحبسِه نفسَه عليها: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ

---

(١) الكهف: ٢٤.

رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ﴾[2] وقولِه تعالى في إشارةٍ إلى سببِ نسيانِ غُلامِ موسى للحوتِ وأنه الشيطان: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥ﴾، وقولِه في آخرِ السورة وهي من أدلِّ الآياتِ على مقصودِنا: ﴿وَعَرَضۡنَا جَهَنَّمَ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡكَٰفِرِينَ عَرۡضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا﴾.

وفي سورةِ السجدة: ﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْۤ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾[3]، وقولِه أيضًا: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآ﴾. وقد تقدّم نظيرُها في الكهف.

وفي سورةِ (ق) ورد فيها آياتٌ تدورُ حولَ معنى الذكرى والتذكير. كقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ﴾[4] وفي آخرِها قال: ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾.

وفي سورةِ الجمعةِ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ

---

(١) الكهف: ٢٨.
(٢) الكهف: ٥٧.
(٣) السجدة: ١٥.
(٤) ق: ٣٧.

﴿كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1].

وفي سورةِ المنافقون قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[2].

وفي سورة الإنسان: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[3]، في سورة الأعلى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾[4] الآيات.

وفي سورة الغاشية: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[5]. لاحظْ كيف عَظَّمَ وظيفةَ التذكيرِ؟! فكأنَّ رسالةَ النبيِّ ﷺ مقصورةٌ على التذكير؛ لبيان أهميةِ التذكيرِ وتكرارِهِ على مسامِعِنا.

وتَكْرَارُ التذكيرِ بمشتقاتِهِ وصِيَغِهِ في هذه السورِ له دلالتُه، حيثُ إنّ التذكيرَ يلزمُ منه التَكرارُ مرةً بعدَ مرة، وهذا يتناسبُ مع الأمرِ بقراءتِها كلِّ جمعةٍ في مواضعِها المعروفة.



---

(١) الجمعة: ٩، ١٠.
(٢) المنافقون: ٩.
(٣) الإنسان: ٢٥.
(٤) الأعلى: ٩، ١٠.
(٥) الغاشية: ٢١، ٢٢.



المجلس الخامس عشر

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾[1]

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على عبدِهِ ورسولِهِ ومصطفاه، أما بعد:

فإنَّ اللهَ تعالى حين ذَكَرَ فَلاحَ المؤمنين، ذَكَرَ الصلاةَ باعتبارِها أوَّل وسامٍ نُوراني -بعد الإيمان- يَشِعُّ مِن قلوبِهِم، وهو أمرٌ يَكادُ يكونُ مُطَّرِدًا في كلِّ آيِ القرآن، يقولُ تعالى في أوَّلِ سورةِ البقرة: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾[2]، ومِن أَجملِ ما وَرَدَ في ذلك: فاتحةُ سورةِ (المؤمنون)؛ إذ جَعَلَ اللهُ أوَّلَ صفاتِهم الخشوعَ في الصلاة، وآخِرَها المحافظةَ على الصلاة، وكلُّ أعمالِ الصلاحِ مِن فِعلِ الخَيرات وتركِ المنكرات، جَعَلَها فيما بينهما، فاقرأْ وتَدَبَّرْ، واحفَظْها واحدةً واحدة: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ۝٦

---

(١) منتقى من كلام للدكتور فريد الأنصاري -رحمه الله- في كتابه «بلاغ الرسالات القرآنية» (ص: ١١٣-١٢١) بتصرف يسير.
(٢) البقرة: ١ - ٣.



﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[1]، فالخَيرُ كلُّه فاتِحتُهُ الصلاة، والخيرُ كلُّه خاتِمَتُهُ الصلاة، والخيرُ كلُّه غايتُهُ الصلاة، والخيرُ كله وسيلتُهُ الصلاة.

فإنْ كنتَ تُصلِّي حَقًّا؛ فأنت تاركٌ لكلِّ مُنكَرٍ مِن الكبائرِ والموبِقات! كالشركِ بالله، والسحرِ، وقتلِ النفس التي حَرَّمَ اللهُ إلا بالحق، وأكلِ الربا، وأكلِ مالِ اليتيم، والتولي يومَ الزحف، وقذفِ المحصنات الغافلات، وكذا تناوُلِ المحرماتِ مِن المطعوماتِ والمشروبات، كأكلِ الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أُهِلَّ به لغيرِ الله، وشُرْبِ الخمرِ أمِّ الفواحش، وسائرِ المُسكِراتِ المخدِّرات، والسُّقُوطِ في المحرماتِ مِن المعاملاتِ والملبوسات، كالكِبْرِ والظُّلم، والغَصْب، وشهادةِ الزُّور، وأكْلِ أموالِ الناسِ بالباطل، والقِمار، وسائرِ المنكرات!

فتَدَبَّرْ كيف أَنَّ اللهَ جلَّ جلالُه ذَكَرَ في سِياقِ صفاتِ الفَلَاحِ -مما أوردناه قبلُ مِن فواتح سورةِ (المؤمنون)- عددًا مِن الأفعالِ والتروك، كان جَانِبُ التركِ فيها أَكثَرَ حُضُورًا، باللفظِ أو بالمعنى، كما في (الإعراضِ عن اللغو)، و(حفظِ الفروج) الذي هو في معنى النهي عن الزنى، والنهي عن مَسَالكِهِ وأسبابه، و(رعيِ الأماناتِ والعهود)، الذي هو في معنى النهي عن الخِياناتِ بِشتَّى أنواعِها، وهذا شيءٌ مُهِمٌّ جدًا، ذلك أنَّ الصلاةَ كما ذَكَرْنا ترْكٌ مِن التُّروك.

---

(١) المؤمنون: ١ – ٩.

وجامعُ ذلك كلِّه قولُ اللهِ ذي الأسرار والأنوار: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾[1] هل أَبْصَرتَ هذه الآية؟ أَبْصِر إذن كيف أَنَّ اللهَ تعالى أَسنَدَ فِعْلَ النهي للصلاةِ نفسِها! كأنها هي ذاتُها شَخصٌ مَعنوي، في هَيئَةِ نبيٍّ مُرْسَل يُؤدِّي مُهِمَّتَه التَّبليغِية، أو عبدٍ مُصلِحٍ يَقومُ بوَظيفَتِهِ الإصلاحية! أَعِد التلاوةَ وتَدَبَّر: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ عَجيبٌ! لِأَنَّ معنى (أَنْ تُصلي): هو أَنْ تَرحَلَ عَن خطاياك إلى الله.. تَخْرُجَ مِن دَرَكاتِ العادةِ إلى دَرَجاتِ العبادة، وهذا كلامٌ يُعبِّرُ عن حقائقَ لا يعلم مَدَى عُمقِها في النفسِ إلا الله! إذ تَتحوَّلُ الأذواقُ وتَتبدَّل، يَتَغَيَّرُ طَعمُ المنكر في قلبك فلا تَستَحْليه. ويَتَبَدَّلُ ذوقُ شَهَواتِ الحرام مِن الرَّغْبةِ إلى الغضبة! وتُصبِحُ خَلْقًا آخر! أَبصِرْ ثم أَبصِر فإنَّ الصلاةَ تَصنَعُك! نَعَم إنها ﴿تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾.

هل غَلَبَتْك الفاحشةُ ولم تَستَطِع التَّخَلُّصَ منها؟ هل أنت مُدمِنٌ على خَطيئةٍ ما؟ دواؤك واحد: صَلِّ! تقول لي: إني أُصلي.. لا، لا! صَلِّ فإنك لا تُصلِّي! ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾، صَلِّ؛ تجدْ أَنَّ ما كانَ يَأسِرُكَ مِن المحرماتِ بالأمس، ويَملأُ عليك قلبَكَ نزوةً ورَغبة، فلا تَستَطِيعُ التَّخَلُّصَ منه؛ هو مِن أَبغَضِ الأشياءِ إليك اليوم! إنَّ القرآنَ سيفٌ قاطع، إذا قَطَع القولَ في حقيقةٍ فلا مِراءَ بَعدُ إلى يوم القيامة! ولَقَد قالَ الحقُّ كَلمتَه، ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾[2].

---

(١) العنكبوت: ٤٥.
(٢) يونس: ٣٢.



إنَّ الصلاةَ سَفَرٌ مِن الأرضِ إلى السماء؛ فأنى لمنازِلِ السلامِ أَنْ تَصطدِمَ بنوازِلِ الحرام؟ أبدًا، لا شهود للدرجات في نَتانةِ الدَّرَكات!

فيا حَسرةً على العباد! لو يُدرِكون ما هذه الصلوات؟ ويا حسرةً ثم يا حسرةً على نابِتَةٍ مِن أبناءِ الإسلام تَعدَّدتْ بهم السُّبُلُ مِن هُنا وهناك، وتَفرَّقَت بهم الأهواء، وانغمسوا في التِّيْهِ مِن كلِّ صَوْب، وأَضَاعوا هذه الصلوات، خُشوعَها ومَواقيتَها وجَمالَها، فصَدَقَ عليهم قولُه تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنْۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴾[1].

اللهم اجعلنا وذُرِّياتنا ممَّن يُقيمُ الصلاة، ولا تَحرِمْنا لذَّتَها وبَرَكتَها بسببِ ذنوبِنا، واغفر اللهم لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



(١) مريم: ٥٩.



المجلس السادس عشر

دلالة الاقتران وأثرها في التدبر [١]

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ وعلى آلِهِ وصحبِهِ ومَن والاه، أما بعد:

فإنَّ مِن أبوابِ التَدَبُّرِ: التأمُّل فيما يُسمِّيهِ العلماءُ بِـ(دَلالةِ الاقترانِ)، أي: دلالةُ عطفِ الكَلِمةِ على كَلِمة، ودلالةُ مجيئِها معها واقترانِها بها، وهو بابٌ لطيفٌ مِن أبوابِ التدبُّر، وفيه فوائدُ كثيرةٌ جَمَّة.

وسنذكُرُ في هذا المجلسِ بعضَ الأمثلة[٢] على هذه القاعدةِ المهمَّة، التي تُبيِّنُ المراد بها:

المثال الأول:

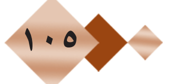
تأمَّلْ كيف قَرَنَ اللهُ بينَ أكلِ الطيباتِ وعَمَلِ الصالحاتِ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾[٣] فأكْلُ الحلالِ الطَّيِّبِ مما

---

(١) للدكتور عبد المحسن بن زبن المطيري، عضو الهيئة العالمية لتدبر القرآن، وعضو هيئة التدريس بكلية الشريعة في جامعة الكويت.

(٢) وكل هذه الأمثلة مأخوذة من كتاب (ليدبروا آياته) بأجزائه الأربعة الأولى.

(٣) المؤمنون: ٥١.



يُعينُ العبدَ على فِعلِ الصالحات، كما أنَّ أَكْلَ الحرامِ أو الوقوعِ في المُشتَبِهات، مما يُثقِلُ العَبدَ عن فِعْلِ الصالحات.

المثال الثاني:

تأمّل في قولِه تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾[1] وقولِه: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾[2] تجدْ أنَّ اللهَ تعالى يَقرِنُ استواءَه على العرشِ باسم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ كثيرًا؛ وذلك لِأَنَّ العَرشَ محيطٌ بالمخلوقاتِ قد وَسِعَها. والرحمةُ محيطةٌ بالخلقِ واسعةٌ لهم، كما قال تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾[3] فاستوى على أَوْسعِ المخلوقاتِ بأَوْسَعِ الصفات.

المثال الثالث:

بُشْرَى لِمَن يَسعى في طَلَبِ الرزقِ الحلالِ بالتجارةِ ونحوِها، ذَكَرَها اللهُ تعالى في قوله: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[4] فقد كان بعضُ الصحابةِ يَتَأَوَّلُ من هذه الآيةِ فَضيلةَ التجارةِ والسَّفَرِ لأَجلِها، حيثُ قَرَنَ اللهُ بين المجاهدين والمكتسبين المالَ الحلال؛ وذلك أنَّ اللهَ ما ذَكَرَ هذين السَّبَبَين لِنَسْخِ تحديدِ القيامِ إلا تَنويهًا بهما؛ لأَنَّ في غيرِهما مِن الأعذارِ ما هو أَشبَه بالمرض.

---

(١) طه: ٥.
(٢) الفرقان: ٥٩.
(٣) الأعراف: ١٥٦.
(٤) المزمل: ٢٠.

المثال الرابع:

لما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ قال بعدها: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾[1]، فبعدَ أَنْ ذكَرَ استِحقاقَه للعبوديةِ ذكَرَ سَببَ ذلك وهو كمالُهُ في نفسه، وكمالُه لِغيرِه، فلا تَصْلُحُ العبادةُ إلا لمن هذه شأنُهُ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾[2] ومَن كان يَعبُدُ الله، فإنَّ الله حيٌّ لا يموت.

المثال الخامس:

قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[3] هذه الآيةُ من أَظْهرِ الأدلةِ على بيانِ منزلةِ العلماءِ الآمرين بالمعروف، حيثُ قَرَنَ الله خُطورَةَ جَريمةِ قَتلِهم بِقتلِ الأنبياء؛ لأنَّ العلماءَ هم وَرَثةُ الأنبياء.

المثال السادس:

قولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾[4] دَلَّت الآيةُ على أَنَّ العِلْمَ والتعليمَ والدراسةَ تُوجِبُ كونَ الإنسانِ ربانِيًّا؛ فمَن اشتَغَلَ بذلك لا لهذا المقصد ضَاع سعيُهُ، وخَابَ عملُهُ.

---

(١) البقرة: ٢٥٥.
(٢) الفرقان: ٥٨.
(٣) آل عمران: ٢١.
(٤) آل عمران: ٧٩.



المثال السابع:

قولُه تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ﴾[1] جَمَعَ بين التسبيحِ والاستغفار؛ إذ في الاستغفارِ محوُ الذُّنوب، وفي التسبيحِ طلبُ الكَمَال.

المثال الثامن:

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ ﴾[2] إنَّ قَرْنَ شَهادةِ العلماءِ بِشهادةِ ربِّ العالمين وشهادةِ الملائكةِ؛ تزكيةٌ عظيمةٌ لأهلِ العلم، فإنَّ اللهَ لا يَستَشهِدُ بمجْرُوح.

هذه -أيها المؤمنون- بعضُ الأمثلةِ التي تَفتَحُ بابًا للتدَبُّرِ لهذا الكتابِ العظيم، فأقبِلوا عليه، وتدبَّروه تَسعدوا وتُفلِحوا.

اللهم ارزقنا فَهْمَ كتابِك والعملَ به، واغفر اللهم لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



(١) النصر: ٣.
(٢) آل عمران: ١٨.





المجلس السابع عشر

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾[1]

الحمدُ للهِ الذي نَصَرَ عبادَه يومَ الفرقان، يومَ التقى الجمعان، والصلاةُ والسلامُ على سيِّدِ ولد عدنان، أما بعد:

فيقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾[2] إشارةٌ مِن اللهِ تعالى -في ثنايا الحديثِ عن غزوة أُحُد- إلى مِنّته على الصحابة -رضوان الله عليهم- حين نَصَرهم يومَ بدر، الذي سماه يومَ الفرقان، الذي فرَّق اللهُ فيه بين الحقِّ والباطل، فاستبان أهلُ الإيمان حقًّا، وصارت بدرٌ وَصْفًا عاصِماً من النفاق، وتاجًا على رؤوس أهلِه، بتزكيةِ اللهِ لهم «افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم»[3].

أيها الصائمون:

إنّ يومَ بدرٍ الذي وَقَع في مثلِ هذا اليومِ العظيم -السابعَ عشرَ مِن رمضان-، اجتمعتْ فيه أنواعٌ مِن المنَنِ مِن اللهِ على عباده، فدعونا نَقِفْ متدبِّرين مع بعضِ

---

(١) للدكتور عمر بن عبد الله المقبل، نائب رئيس مجلس إدارة الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم، والأستاذ المشارك في جامعة القصيم.

(٢) آل عمران: ١٢٣.

(٣) البخاري (٣٠٠٧)، مسلم (٢٤٩٤).



الآياتِ التي نزلت في هذه الغزوة، ولْننطلقْ من تلك السورة العظيمة، التي سماها ابنُ عباسٍ -رضي الله عنهما- سورةَ بدر؛ إنها سورةُ الأنفال، وسوف نقفُ فيها على إشاراتٍ تُذكِّرُ ببعض الدلالات:

أولًا: ابتدأتْ السورة بـ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾[1] ثم تأخَّر الجواب بعد أربعين آية في قوله سبحانه: ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾[2] وهنا يَبرُزُ السؤالُ: لماذا تأخَّرَ الجواب؟

فالجوابُ -والله أعلم-: لِتَذكيرِ الأُمّةِ بالأُصول العُظمى التي يجبُ أَنْ تتعلّقَ بها، وهي: التقوى، وإصلاحُ ذات البين، وإقامةُ الصلاة، والخوفُ من اللهِ والتوكلُ عليه، وفي هذا التأخيرُ للجوابِ إشارةٌ إلى التحذيرِ من التعلُّق بالمال، وأَثرِه في إفسادِ ذاتِ البين، إذا غلبَ على مصالحِ الشخصِ ونياتِه، أو كان هذا هو الدافعُ للجهادِ في سبيلِ الله.

ثانيًا: كمْ مِن الأحداثِ التي تكونُ في ظاهرِها مُؤلمة، وفي طَيَّاتها الخيرُ للأُمّة: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾[3] فقد كان الصحابةُ يتمنَّون السَّلامةَ من الحرب،

---

(١) الأنفال: ١.
(٢) الأنفال: ٤١.
(٣) الأنفال: ٧.

ويريدون الظَّفَر بالعِيرِ التي جاءتْ من الشام، فكان ما وَقَعَ -رَغمَ أَلَمِه- خيرٌ وأحسنُ تأويلًا.

ثالثًا: إذا صَدَقَ المؤمنون في فِعلِ ما أمرَهم اللهُ به -ولو كانت عدتُهم وعتادُهم قليلًا-، أعانهم بجُنْدٍ من عنده، وهو ما وقع في بدر: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[1] وقال سبحانه: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[2].

رابعًا: تنبيهُ الصحابةِ وكلِّ مَن يأتي بعدَهم إلى أهميةِ الاستجابةِ لأمرِ اللهِ ورسوله، وخُطورةِ التأخيرِ عن الاستجابة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾[3].

خامسًا: أهميةُ الدعاءِ وصدقِ التضرُّعِ في كشفِ المحن، وكفِّ أذى المعتدين: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[4]، وتأملوا أيها المؤمنون في كلمة: ﴿تَسْتَغِيثُونَ﴾ ففيها دلالةٌ على الحالةِ الكاملةِ من الدعاء، وأنه ليس مجردَ دعاءٍ بقلبٍ غافلٍ لاهٍ.

---

(١) الأنفال:١٢.
(٢) الأنفال:١٧.
(٣) الأنفال:٢٤، ٢٥.
(٤) الأنفال: ٩.

سادسًا: ومن الدلالات المهمّةِ التي تضمنتْها سورةُ الأنفال، التذكيرُ بالنِّعم السابقةِ ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾[1].

سابعًا: أثرُ الاستغفارِ في دفعِ العذابِ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾[2].

ثامنًا: طَمْأنةُ المؤمنين أنَّ ما يُنفِقُه أعداؤهم في الصدِّ عن سبيلِ اللهِ أنه سيكون حسرةً عليهم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ﴾[3].

تاسعًا: على المؤمنين أنْ يَعُدُّوا العُدَّة، ويفعلوا الأسبابَ في قتالِ أعدائِهم، وأنْ لا يستغرقَهم الفكرُ في: كيف سننتصرُ على الأعداء؟ فإنّ الله أَيَّدَ رسولَه -ﷺ- بأنواعٍ من الكراماتِ في هذه الغزوةِ ﴿فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾[4].

---

(١) الأنفال: ٢٦.
(٢) الأنفال:٣٣.
(٣) الأنفال:٣٦.
(٤) الأنفال: ١٧.

وكذلك أيضًا: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾[١] ونقرأ متدبرين في نفس السورة: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾[٢] وهذا يشملُ الإعدادَ بكلِّ صُورِهِ الحِسيةِ والمعنويةِ، فإذا قَصّرت الأُمةُ في ذلك، فقد عَصَتْ ربَّها؛ ومن عصى ربَّه فكيف ينتظرُ منه الانتصارَ والعونَ والتوفيق؟!..

عاشرًا: اجتماعُ الكلمةِ ووَحْدةِ الصف، مِن أعظم أسبابِ القوة، وإضعافِ أثرِ مكائدِ الأعداء، وعكسُ ذلك التَّفرُّق، وقد تجلّى هذا المعنى بوضوح في قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[٣] ومن تأمّلَ واقعَ الآيةِ وَجد حقيقتَها جليّة.

أحد عشر: دَأْبُ المنافقين التخذيلُ، وبثُّ كلِّ ما يوهنُ الصفوفَ في أحلكِ الظروفِ ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ ويدفعُ كيدَهم مثلُ التوكلِ على الله؛ ولذا قال سبحانه بعد مقولةِ المنافقين السابقة: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٤].

---

(١) الأنفال: ٤٤.
(٢) الأنفال: ٦٠.
(٣) الأنفال: ٤٦.
(٤) الأنفال: ٤٩.

اثني عشر: تضمَّنتْ السورةُ قاعدةً من قواعدِ صلاحِ القلب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[1] وهي وإنْ نزلتْ في شأنِ الأسرى؛ إلا أنّ المعنى أعمّ، كما هي القاعدة المعروفة عند أهل العلم: العبرةُ بعمومِ اللفظ لا بخصوصِ السبب.

ثلاثة عشر: التنويهُ بشأنِ الصحابةِ -رضوان الله عليهم أجمعين- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ﴾[2] فاعرفوا لهم قدرَهم وترضَّوا عنهم، فقد بذلوا الغالي والنفيس، وضحَّوا بكلِّ ما استطاعوا، حتى وَصَلَ إلينا هذا الدينُ غَضًّا طريًّا.

أربعة عشر: وفي قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾[3] تذكيرٌ بأصْلٍ عظيمٍ في هذا الباب، وهو: أنّ النصرَ من عندِ الله ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾[4].

---

(١) الأنفال: ٧٠.
(٢) الأنفال: ٧٢.
(٣) آل عمران: ١٢٣.
(٤) آل عمران: ١٢٦.

فمَن أراده فلْينصُر اللهَ بنصرِ دينِه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾[(١)] وهذا يُوجِبُ البُعدَ عن كلِّ ما يُسخطُ الله، ومِن أَخطرِ هذه الذنوبِ أكلُ الربا؛ الذي وصفه الله بأنه حربٌ له ولرسوله -ﷺ-.

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞ﴾ تنبيهٌ إلى الحالِ التي كان عليها الصحابةُ -رضوان الله عليهم-، فمع ما كانوا عليه من الضعفِ إلا أنّ نَصرَ اللهِ إذا نزَلَ لم تدفعْه أيُّ قُوّةٍ في الدنيا، وإذا خَذَلَ اللهُ الأُمةَ فلن تستطيعَ أنْ تنتصرَ ولو وَقَفتْ معها جميعُ قوى الأرضِ ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾[(٢)].

وفي قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ إشارةٌ واضحةٌ إلى أنّ شُكرَ النِّعمِ مِن أعظمِ أسبابِ عونِ اللهِ وإمدادِه ونصرِه، وأنّ كُفرَ النِّعمِ ونسيانَ شكرِها، مِن أعظمِ أسبابِ الخذلان.

---

(١) محمد: ٧.
(٢) آل عمران: ١٦٠.

هذه -يا عبادَ اللهِ- بعضُ الدلالاتِ الإيمانيةِ التي تضمنتْها قصةُ بدرٍ في ضوءِ سورةِ الأنفالِ وآيةٍ من آلِ عمران، فاتقوا اللهَ واشكروا له نعمةَ نصرِهِ لعبادِه في ذلك اليومِ العظيم، وتدبَّروا هذه السورة، وتأمّلوا في عِبرِها ودلائِلها.

اللهم أَبرِم لهذه الأُمةِ أمرَ رُشد، يُعزُّ فيه أولياؤك، ويُذلُّ فيه أعداؤك، واغفر اللهم لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.





المجلس الثامن عشر

﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على عبدِهِ ورسولِهِ ومصطفاه، أما بعد:

فيقولُ الله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾[1].

هذه -أيها المؤمنون- هي الآيةُ الثانيةُ من سورةِ فاطر، وهي تتحدثُ عن معنىً بليغ من معاني قدرةِ اللهِ التي خَتَمَ بها الآيةَ الأولى، وهي قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[2]، وحين تَستقرُّ هذه الصورةُ في قلبِ المؤمنِ فإنه سيَحدُثُ في قلبِه تَغيُّرًا كبيرًا في تصوُّراتِهِ ومشاعرِهِ واتجاهاتِهِ وموازينِهِ وقِيَمِه في هذه الحياةِ جميعًا.

إنها تَقطعُه عن شبهةِ كلِّ قوةٍ في السماواتِ والأرضِ، وتَصِلُه بقوةِ الله، وتُيَئِّسُه من مَظِنَّةِ كلِّ رحمةٍ في السماوات والأرض، وتصله برحمةِ الله، وتُوصِدُ

---

(١) فاطر: ٢.
(٢) فاطر: ١.



أمامَه كلَّ بابٍ في السماواتِ والأرض، وتَفتحُ أمامَه بابَ الله، وتُغلِقُ في وجهِه كلَّ طريقٍ في السماواتِ والأرض، وتَشرعُ له طريقَه إلى الله.

ورحمةُ اللهِ -التي نَصَّتْ عليها الآيةُ الكريمة: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾- تَتمثَّل في مظاهرَ لا يُحصيها العدُّ.

ورحمةُ الله تَتمثّلُ في الممنوعِ تَمثُّلَها في الممنوع، ويجدُها مَن يفتحُها اللهُ له في كلِّ شيء، وفي كلِّ وضعٍ وحال، وفي كلِّ مكان، يجدُها في نفسِه، وفي مشاعرِه، ويجدُها فيما حولَه، وحيثما كان، وكيفما كان.

وما مِن نعمةٍ -يُمسِكُ اللهُ معها رحمتَه- حتى تَنقَلبَ هي بذاتها نقمة، وما مِن محنةٍ- تحفُّها رحمةُ الله- حتى تكونَ هي بذاتها نعمة!

ينامُ الإنسانُ على الشوك- مع رحمةِ الله- فإذا هو مهاد، وينامُ على الحرير- وقد أُمسكتْ عنه الرحمة- فإذا هو شوكُ القَتَاد!

ويُعالج أَعسَرَ الأمورِ- برحمةِ الله- فإذا هي هَوادَةٌ ويُسر، ويُعالج أَيسرَ الأمور- وقد تخلَّت رحمة الله- فإذا هي مَشقةٌ وعُسر، ويخوضُ بها المخاوفَ والأخطارَ فإذا هي أمنٌ وسلام، ويعبر بدونها المناهِجَ والمسالِكَ فإذا هي مَهْلكةٌ وبَوَار!

ولا ضيق مع رحمةِ الله! إنما الضيقُ في إمساكِها دون سواه، لا ضيق

ولو كان صاحبُها في غياهِبِ السجن، أو في جحيم العذاب، أو في شِعابِ الهلاك، ولا وسعة مع إمساكِها ولو تَقَلَّبَ الإنسانُ في أعطافِ النعيم، وفي مراتعِ الرخاء، فَمِنْ دَاخِلِ النفسِ -برحمة الله- تتفجَّرُ ينابيعُ السعادةِ والرضا والطمأنينة، ومِنْ دَاخِلِ النفسِ -مع إمساكِها- تَدُبُّ عقاربُ القلقِ والتعبِ والنصبِ والكَدِّ والمعاناة!

يَبسُطُ اللهُ الرزقَ -مع رحمتِه- فإذا هو مَتاعٌ طيّبٌ ورَخاء، وإذا هو رَغَدٌ في الدنيا وزادٌ إلى الآخرة، ويُمسِكُ رحمتَه، فإذا هو مَثارُ قلقٍ وخوف، وإذا هو مثارُ حسدٍ وبُغض، وقد يكونُ معه الحرمانُ بِبُخلٍ أو مرض، وقد يكونُ معه التَّلفُ بإفراطٍ أو استهتار.

ويَمنحُ اللهُ الذُّرّيّةَ -مع رحمتِه- فإذا هي زينةٌ في الحياة، ومَصدرُ فرحٍ واستمتاع، ومضاعفةٌ للأجرِ في الآخرةِ بالخَلَفِ الصالح الذي يَذكرُ الله. ويُمسكُ رحمتَه فإذا الذُّرّيّةُ بلاء، ونكدٌ وعنتٌ وشقاء، وسَهَرٌ بالليل وتعبٌ بالنهار! ويَهَبُ اللهُ الصحةَ والقوةَ -مع رحمتِه- فإذا هي نعمةٌ وحياةٌ طيبة، والتذاذٌ بالحياة.

ويُمسكُ نعمتَه، فإذا الصحةُ والقوةُ بلاءٌ يُسلِّطُه اللهُ على الصحيح القوي، فيُنفِقُ الصحةَ والقوةَ فيما يُحطِّمُ الجسمَ ويُفسدُ الروح، ويَدَّخِرُ السوءَ ليوم الحساب!

ومن رحمةِ اللهِ أن تحس برحمة الله! فرحمةُ الله تَضمُّك وتغمُرُك وتَفيضُ عليك، ولكنْ شعورُك بوجودِها هو الرحمة، ورجاؤك فيها وتطلُّعُك إليها هو الرحمة، وثقتُك بها وتوقُّعها في كلِّ أمرٍ هو الرحمة. والعذابُ هو العذابُ في احتجابِك عنها، أو يأسِك منها، أو شكِّكَ فيها. وهو عذابٌ لا يَصبُّه اللهُ على مؤمن أبدا. ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾[1].

ورحمةُ اللهِ لا تَعِزُّ على طالبٍ في أيِّ مكان، ولا في أيِّ حال!

وجَدَها إبراهيمُ- عليه السّلام- في النار.

ووجَدَها يوسفُ -عليه السّلام- في الجُبِّ كما وجدها في السجن.

ووجدها يونسُ -عليه السّلام- في بطنِ الحوتِ في ظلماتٍ ثلاث.

ووجدها موسى -عليه السّلام- في اليمِّ وهو طِفلٌ مُجرَّدٌ من كلِّ قوة ومن كل حراسة! كما وجدها في قصرِ فرعونَ وهو عدوٌّ له متربِّصٌ به ويَبحَثُ عنه.

ووجد رحمةَ اللهِ أصحابُ الكهفِ في الكهف، حين افتقدوها في القصورِ والدور، فقال بعضُهم لبعضٍ: ﴿فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾[2].

---

(١) يوسف: ٨٧.
(٢) الكهف: ١٦.

ووجدها رسولُ اللهِ -صلّى الله عليه وسلّم- وصاحبُه في الغار، والقومُ يتعقبونهما ويقصُّون الآثار.

ووجدها كلُّ مَن آوى إليها؛ يائسًا مِن كلِّ ما سواها، مُنقطِعًا عن كلِّ شُبهةٍ في قوة، وعن كلِّ مَظِنّةٍ في رحمة، قاصدًا بابَ اللهِ وحدَه دونَ الأبواب.

ثم إنه متى فتحَ اللهُ أبوابَ رحمتِه فلا مُمسكَ لها، ومتى أَمسَكَها فلا مُرسلَ لها، ومِن ثَمّ فلا مخافةَ مِن أحد، ولا رجاءَ في أحد، ولا مخافةَ مِن شيء، ولا رجاءَ في شيء، ولا خوفَ مِن فوتِ وسيلة، ولا رجاءَ مع الوسيلة، إنما هي مشيئةُ الله! والأمرُ مباشرةٌ إلى الله، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، يقدر بلا مُعقِّب على الإرسالِ والإمساك. ويُرسلُ ويمسكُ وِفقَ حكمةٍ تَكْمُنُ وراءَ الإرسالِ والإمساك.

وما بين الناسِ ورحمةِ اللهِ إلا أنْ يطلبُوها مباشرةً منه، بلا وساطةٍ وبلا وسيلةٍ إلا التوجُّه إليه في طاعة وفي رجاءٍ وفي ثقةٍ وفي استسلام.

﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾، فلا رجاء في أحدٍ من خلقِه، ولا خوف لأحدٍ من خلقه. فما أحدٌ بمُرسلٍ من رحمةِ اللهِ ما أَمسَكَهُ الله.

أَيَّةُ طُمأنينة؟ وأيُّ قرار؟ وأيُّ وضوح في التصوراتِ والمشاعرِ والقيم والموازينِ تُقِرُّه هذه الآيةُ في قلبِ المؤمن؟! آيةٌ واحدةٌ تَرسِمُ للحياةِ صورةً جديدة، وتُنشِئُ في الشعورِ قِيَمًا لهذه الحياةِ ثابتة، وموازينَ لا تهتزُّ ولا تَتأرْجح، ولا تتأَثَّرُ بالمؤثراتِ كلِّها، ذهبتْ أم جاءت، كَبُرتْ أم صَغُرت، جَلَّت أم هانت، كان مصدرُها الناس أو الأحداث أو الأشياء!

صورةٌ واحدةٌ لو استقرَّتْ في قلبِ إنسانٍ، لصَمَدَ كالطَّودِ للأحداثِ والأشياءِ والأشخاصِ والقُوَى والقِيَمِ والاعتبارات، ولو تَضافرَ عليها الإنسُ والجن، وهم لا يَفتحون رحمةَ الله حين يُمسِكُها، ولا يمسكونها حين يفتحُها.

آيةٌ من القرآنِ تفتحُ كُوَّةً من النور، وتَفجُرُ يُنبوعًا من الرحمة، وتَشُقُّ طريقًا ممهودًا إلى الرضا والثقةِ والطُمأنينةِ والراحةِ في ومضةِ عين، وفي نبضةِ قلب، وفي خَفْقةِ جَنان[1].

وها أنتم ـ أيها المؤمنون ـ في شهرِ الرحمة، وشهرِ فتحِ أبوابِ الجِنان، وإغلاقِ أبوابِ النيران، وتصفيدِ الشياطين، فتعرَّضوا لنفحاتِ ربكم، عسى رحمةٌ يُرسلُها عليكم، لا يُمسكها أحدٌ، تَسْعدوا بها دنيا وأخرى.

اللهم واجعلنا من عبادِك المرحومين، وأَدْخلنا برحمتِك في عبادك الصالحين، واغفر اللهم لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



(١) باختصار وتصرف من «في ظِلال القرآن» (٥/ ٢٩٢١).





المجلس التاسع عشر

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾[1]

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على عبدِهِ ورسولِهِ ومصطفاه، أما بعد:

حين يقرأُ المؤمنُ هذه الصفاتِ أو تلك، فحَقِيقٌ به أنْ يَبْحثَ عن نَجاتِهِ مِن خِلالِ التَّأسِّي بالصفاتِ العاليةِ الفاضلة، والهَرَبِ مِن صفاتِ أعداءِ الله، وأولياءِ الشيطان.

ألا وإنَّ مِن تلك الآياتِ العظيمةِ التي تَستوقِفُ المؤمن، هي ما ذَكَرَه اللهُ تعالى في خُواتِيمِ سورةِ الفرقان، والمعروفةِ بـ(صفاتِ عبادِ الرحمن).

وقد اشتملتْ هذه الصفاتُ على صفاتٍ لهم في العبادة، وأُخرى في المُعاملة، وبعضُها في السُّلُوك، ولا شَكَّ أنها جميعُها داخلةٌ تحت العبادةِ بمفهومِها الواسعِ في الإسلام.

• صفتان ظاهرتان جامعتان: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾[2] كان الابتداءُ بهاتينِ الصفتينِ

---

(١) للدكتور عبد الله بن منصور الغفيلي، عضو الهيئة العالمية لتدبر القرآن، وعضو هيئة التدريس بالمعهد العالي للقضاء بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
(٢) الفرقان:٦٣.



الظاهرتين لعبادِ الرحمن؛ لأنهما الدليلان القابلان لِأَنْ يتبينهما المُتبيِّنُ بسببِ ظهورِهما، ولأنَّهما الثمرةُ الطبيعيةُ الظاهرةُ، والنتيجةُ المنطقيةُ الحسنةُ لكثيرٍ مِن أنواعِ المجاهدةِ الروحيةِ والبدنيةِ في العديدِ من المجالات، وهما مِن بابِ الأخلاقِ الذي قُدِّمَ لأهميَّتِه «إنما بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صالحَ الأخلاقِ»(١).

الصفة الأولى: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾

فطريقةُ المشي صفةٌ ظاهرة، تَدُلُّ على تمثيلِ أصحابِها للبساطةِ والفِطرةِ، وابتعادِهم عن التصنُّعِ والفَرَحِ الشديدِ أَشَرًا! والمَرَحِ الشديدِ بطرًا!.

فهم ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾، أي: بسَكينةٍ ووَقَارٍ من غيرِ جَبْرِيَّةٍ ولا استكبار»(٢)، ولذا -والله أعلم- قال: ﴿عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ ولَمْ يَقُل (فِي الأَرض) فهي وَسيلةٌ لِتَحقِيقِ مَقْصَدِهِم لغيرِها لا الإخلاد إليها.

كما في قول سبحانه: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾(٣) فالأرضُ ظرفٌ لهم ومَقصدٌ عندهم؛ فلذلك يمرحون فيها ويقضون أوقاتهم باللهو عليها، فأمَّا عبادُ الرحمنِ فإنهم يمشون مِن غيرِ استكبارٍ ولا مَرَحٍ، ولا أَشَرٍ ولا بَطَرٍ، وليس المرادُ أنهم يمشون كالمرضى من التَّصَانُعِ تَصَنُّعًا ورياء، فقد كان سيدُ ولدِ آدمَ -ﷺ- إذا مَشَى كأنما يَنْحَطُّ مِن صَبَبٍ، وكأنما الأرضُ تُطوى له(٤).

---

(١) حديث أخرجه أحمد، ح(٨٩٣٩)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٧٣)، وصححه ابن عبدالبر في «التمهيد» (٢٤/ ٣٣٤).
(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (٦/ ١٢٢).
(٣) الإسراء: ٣٧.
(٤) ينظر: تفسير ابن كثير (٦/ ١٢٢).

الصفة الثانية: ﴿قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾

فهذا هو المظهرُ الخارِجِيِّ الثاني لعبادِ الرحمن، وقد صَارَ فيهم سجيةً وطبعًا لا كُلفةَ فيه، وهو لسانُهم الرطبُ ومَنطِقُهم العَذْب.

والخِطابُ موجَّهٌ لعبادِ الرحمنِ مِن الجاهلين مباشرة: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ﴾! فهم في أَعلى درجةِ التبيُّن مِن اتهامِهم لهم، إلاّ أنهم آثروا السلام، وكأنَّهم لا يعلمون شيئًا مما يقولُ الجاهلون.

ومع أنَّ الإسلامَ شَرَعَ للمسلمِ أَخْذَ حَقِّهِ ممَّن ظَلَمَه؛ إلاّ أنَّه يَذْكُرُ هنا الأكملَ لعبادِ الرحمن، خاصَّةً الدعاة، فقد ظُلِموا مِن الجاهلين فكان المُقابلُ السلام، وهو ما أَمَرَ الله بِه نبيَّه ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾[1].

قال جعفرُ الصادقُ –رحمه الله–: «ما في القرآنِ أَجمَع لمكارمِ الأخلاقِ مِن هذه الآية»[2].

• ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا﴾[3]:

وهو انتقالٌ مِن الأخلاقِ للتعبُّد، فلا قَوَامَ للأخْلاقِ بدونِه! كما أنَّ التعبدَ المفتقِرَ للخُلُقِ هو أَجْوفُ الأثر.

---

(١) الأعراف: ١٩٩.
(٢) تفسير البغوي (٢/ ٢٦٠).
(٣) الفرقان: ٦٤.

وفي هذه الصفة معنيان:

الأول: أنَّ هذه الصفةَ الخفيةَ لِبَيَاتِهم بين يدي ربِّهم سُجَّدًا وقيامًا؛ أَتَتْ في مقابِلِ الصفتينِ الظاهرتينِ للعباد، وهما المشيُ هَونًا والتَّخاطُبِ سَلامًا.

وهذا واضحٌ مِن قولِه ﴿ لِرَبِّهِمْ ﴾، فلا يكادُ يَعلمُ مخلوقٌ بما يقومون به مِن إِخلاصِهم لله.

والثاني: أنه ذَكَرَهم بواحدةٍ مِن أهمِّ العباداتِ! بل أَهَمُّها وهي الصلاة، فهي عمودُ الدينِ ورُكْنُه الرَّكين.

كما أنهم تأسَّوا في ذلك بِقُدوتِهم ﷺ فقد قال عنه ربه: ﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ﴾[1].

وقد ذَكَرَ اللهُ أهمَّ حالتين في الصلاة فذَكَرَهم بهما، وهما السجودُ والقيام.

- **عباد الرحمن مُشفِقون على أنفسِهم خائِفون مِن ربهم:**

﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾[2] ففي هاتينِ الآيتينِ إظهارُ الضَّعفِ والخوفِ مِن ربهم، مع ما في ظاهرِهِم من الشفقةِ والخوفِ مِن أَنْ يكونَ مصيرُهمُ العذاب.

---

(١) المزمل: ٢٠.
(٢) الفرقان: ٦٥، ٦٦.



فهم يَتَحَدَّثون عن جَهنمَ بصفتين فيها، أنها كالغريمِ الملازمِ لِغريمِهِ المدين، وأنها بئسَ المستقرُّ والمُقام.

وحيثُ إنَّ هؤلاءِ العبادَ يَطمَعون أَنْ يَستَجيبَ لهم ربُّهم ويَغفِرَ لهم خَطاياهم، وحيثُ إنَّه لا يوجدُ يومَ القيامةِ من دارٍ سوى دارِ الجنةِ أو النار، فكان إِشفاقُهُم مِن جَهنم وطَمَعُهم أَنْ يَستَجيبَ لهم ربُّهم بِأَنْ يَصرِفَ عنهم عَذابَها بالكليّة، معناه أنهم يدعون الله تعالى ضِمنًا أَنْ يَتَغَمَّدَهم برحمتِهِ فيُدْخِلهم الجنةَ مَنًّا مِنه وفضلًا بعد أنْ يمتَنَّ عليهم، ويَتفضلَ بغُفرانِ ذنوبِهم، وسَتْرِ عيوبِهم، وقبولِ أعمالِهم الصالحة.

- **التوسط في الإنفاق:**

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾[1]

هنا يُبيِّنُ سُلوكَهم الاقتصادي، وتَعامُلَهم الماليَّ في العطاءِ والإمساك، وهذا هو التَّكامُلُ بين الأخلاقِ والعبادةِ والإنفاق.

فهم وَسَطٌ بين الإِسرافِ والإِقتار، فالإسرافُ هو الإنفاقُ بِكثرةٍ هي غايةُ ما يكونُ مِن النفقة، والإقتارُ هو الإمساكُ بِشدّةٍ هي غايةُ ما يكونُ في النفقة سَلْبًا، والتوسُّطُ بينهما هو الشرعُ والعقلُ والحكمة.

---

(١) الفرقان:٦٧.



فليسوا بمبَذِّرين في إنفاقِهم فيصرفون فوقَ الحاجة، ولا بخلاء على أهليهم فيُقصِّرون في حقِّهم فلا يَكْفُونهم، بل هم عَدْلٌ خيار، وخَيرُ الأُمورِ أوسطُها، لا هذا ولا ذاك[١].

• ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾[٢]:

وهنا بيانُ اجتنابِهم لعظائِم الذنوبِ، وأَشَدّها الشركُ بالله، فهو أعظمُ الذنوب، والمرادُ هنا: إثباتُ ضِدِّها مِن التوحيدِ والنقاء.

وهم بهذا يَنسَجِمون انسِجامًا كاملًا مع الكونِ حولهم، فما خَلَقَه اللهُ إلاّ لِتوحيدِه وعبادتِه: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾[٣].

وهذه الصفةُ مُؤكِّدةٌ للصفاتِ السابقة؛ مِن خوفِهم ودعائِهم له بِأنْ يَصرِفَ عنهم عذابَ جهنم، وصِفتِهم بالبَيَاتِ بين يديهِ سُجّدًا وقيامًا فكان التتويجُ أنَّهم لا يَدْعُون آلهةً أُخرى، وهو التوحيدُ المُنجِّي مِن العذاب، والذي يكونُ معه الغفرانُ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾[٤].

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ١٢٤).
(٢) الفرقان: ٦٨.
(٣) الذاريات: ٥٦.
(٤) النساء: ١١٦.



• ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾:

هذا هو الذنبُ العظيمُ الثاني، الذي بَرِئ منه عبادُ الرحمن، واتَّصَفُوا بأنهم لا يُقارفوه، وهو قَتْلُ الإنسانِ بدونِ حق، وفي الصحيحين قال ﷺ: «لا يَحِلُّ دَمُ امرئٍ مسلم يشهدُ أن لا إله إلا الله وأني رسولُ الله إلا بإحدى ثلاثٍ: النفسِ بالنفس، والثَّيِّبِ الزاني، والمارقِ مِن الدين التاركِ للجماعة»[1].

فالنفسُ غاليةُ الثمن، فَمَن أَهدَرَها وَقَعَ في الذنبِ العظيم!

وكان مِن عظيم هذا الذنب أَنَّ مَن اقترفَ منه بِحَقِّ واحدٍ مِن الناس كان كَمَن اقتَرَفَه بحقِّ الجَميع. إلاّ أَنَّ الاستثناءَ في قوله: ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ دلالَةٌ على صفةٍ أخرى في عبادِ الرحمن، وهي أَنَّهم أَحرَصُ الناسِ على إقامةِ الحدود، فيُقيمُون القصاصَ مِن القاتِلِ؛ وكلِّ مَن حَلَّ دَمُه بالشرع. فهُم أبعدُ الناسِ عن اقترافِ ذنبِ القتلِ العظيم، وهم أَقربُ الناسِ لإقامتِهِ إِنْ كان بالحق.

• ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾:

هذا هو الذنبُ العظيمُ الثالثُ مِن الذُّنوبِ التي بَرِئ منها عبادُ الرحمن، فنفوسُهم كبيرةٌ، لا تَجُرُّها شهوةٌ تُنْزِلُهم مِن مكانتِهم العالية، بأخلاقهم الكبيرة تلك؛ لِتكونَ هذه الصفةُ ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ خاتمةً لصفاتٍ سَلبيةٍ بَرَّأَ الرحمنُ منها عبادَه.

فمِن تمامِ عبوديتِهم لله، ومعرفتِهم بمعاني التوحيد، لا تَنساقُ نفوسُهم إلى شهوةٍ محرّمة، لها تَبِعاتُها في الدنيا والآخرة.

---

(١) البخاري (٦٨٧٨)، ومسلم (١٦٧٦)، عن ابن مسعود -رضي الله عنه-.

• **عباد الرحمن يرجعون للحق ويتوبون من الذنب:**

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾[1] فمَن اقترفَ تلك الكبائرَ استحَقَّ العذابَ يوم القيامة.

لكنَّ هذا ليس آخِرَ المطافِ! فما زالت الروح في البَدَنِ فإنَّ إمكانيةَ التصحيح واردةٌ؛ وهي بالتوبةِ من المنكرات، ويتحقق ذلك بالإيمانُ الصادقُ والعملُ الصالح.

والجزاءُ: هو قَبولُ التوبة، وتَبديلُ السيئاتِ حسنات وليس بعد هذا الكرم الرباني كرم.

• **عباد الرحمن لا يشهدون الزور، ويمرون باللغو - إن مروا - كرامًا:**

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾[2] ولعلّ الأقربَ هنا أَنْ الزُّورَ في الآيةِ: هو شهادةُ الزور، لاقترانِهِ بالذنوبِ العظيمةِ السابقة، وقد ذُكِرَ مَعَها في أحاديثَ عِدّة، كما يمكن تفسيره باجتنابهم شهادة مشاهد الحرام، وكذا مجالس اللغو.

فِإنْ مَرُّوا به -اضطرارًا-، فلا يتلطخون بشيئ من ذلك ، كما وُصِفَ قولُهم

---

(١) الفرقان:٦٨ - ٧١.
(٢) الفرقان:٧٢.

حينَ مخاطبةِ الجاهلين لهم بالسلام.

• عبادُ الرحمن مُبصرون سامعون لآياتِ الله:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾(١) فهم مُقبِلون على التذكِير والمُذَكِّر، يَستَمعون القولَ مِن الناصحِ فيَعُوه.

وليسوا ممن يجلسون للنُّصح والتذكيرِ والقرآنِ وهم غيرُ مُستحضرين لقلوبهم وأفئدتهم؛ فيكونُ حالُهم كما وصَفَ اللهُ بقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾(٢).

بل هم إذا ذُكِّروا بآياتِ اللهِ على درجةٍ كبيرةٍ مِن الاستماع والبَصيرة.

قال الحسن البصري: كم مِن رجلٍ يقرؤها ويخِرُّ عليها أصمَّ أعمى، وقال قتادة: لم يصموا عن الحق ولم يعموا فيه، فهم -والله- قومٌ عَقَلوا عن الله، وانتفعوا بما سَمِعوا مِن كتابه(٣).

• عبادُ الرحمن يسألون ربهم قُرَّةَ أعينٍ مِن الأزواجِ والذريةِ والأتباع:

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾(٤) فهم حَرِيصُون على الذُّرِّية بِشرطِ صلاحِها،

---

(١) الفرقان:٧٣.
(٢) يونس:٤٢.
(٣) ينظر: تفسير ابن كثير (٦/ ١٣١).
(٤) الفرقان:٧٤.



فيُكثِّرون عددَ المؤمنين المتصفينَ بصفاتِ عبادِ الرحمن.

قال عكرمة: لم يُريدوا بذلك صَبَاحَةً ولا جَمالًا؛ ولكنْ أرادوا أَنْ يَكونوا مُطيعين.

وقال الحسنُ البصري: لا واللهِ ما شيءٌ أَقَرَّ لعينِ المسلمِ مِن أَنْ يَرى ولدًا، أو وَلَدَ ولدٍ، أو أخًا، أو حميمًا مُطيعًا لله عز وجل[١].

وإنما طلبوا أنْ يكونوا للمتقين أئمةً؛ لِيُرشِدوهم ويُعينوهم على الطاعةِ والخيرِ، بخلافِ ما لو كانوا أَتباعًا؛ فلن يكونَ لهم مِن التأثيرِ كما لو كانوا متبوعين.

وهم بهذا يَضربون أروعَ الأمثلة، في عُلوِّ الهمةِ وسموِّ الروح؛ ولذلك كان جزاؤهم عاليًا،كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ٧٥ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾[٢]

فالجزاءُ مِن جنسِ العملِ فيُجزَونَ الغُرُفاتِ بما كانوا يبيتون في سجودٍ وقيام، ويُلقَّون التحيةَ والسلامَ بما كانوا يخاطبون الجاهلين بالسلام، ويَخْلُدون في الجنة مُستقرًا ومُقامًا باستعاذتِهم وخوفِهم مِن مُلازمةِ جَهنمَ التي ساءت مُستقرًا ومقامًا[٣].

اللهم اجعلنا ممَّن اتَّصَفَ بهذه الصفاتِ فنالَ هذا الجزاء، واغفر اللهم لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٦/ ١٣٢).
(٢) الفرقان:٧٥، ٧٦.
(٣) ينظر للاستزادة: تأملات في سورة الفرقان، للدكتور: حسن باجودة.



المجلس العشرون

بصائر تدبرية من سورة القدر [(١)]

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على عبدِهِ ورسولِهِ ومصطفاه، أما بعد:

فإنَّ مِن السُّوَرِ العظيمةِ التي يَنبَغِي لِلمؤمنِ أنْ يَتدبَّرَها -خاصّةً مع إقبالِ العشرِ الأواخرِ- سورةَ القدر، التي يقول الله فيها ربنا:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۞ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾[(٢)].

هذه السورةُ العظيمة، سورةٌ مكية، سُميت بالقَدْرِ لِتكرارِ ذِكْرِه فيها، ولِكونِها تُركِّزُ على بيانِ عِظَمِ ليلةِ القدْر، ومَنزلَتِها وفضلِها.

قال أبو بكر الوراق: سُمِّيت ليلةَ القدرِ؛ لأنه نزَلَ فيها كتابٌ ذو قَدْر، على لِسانِ مَلَكٍ ذي قدر، على أُمّةٍ لها قدر، ولعلّ اللهَ تعالى ذَكَرَ لَفْظَ القدرِ في هذه

---

(١) للدكتور محمد بن عبد الله الربيعة، عضو الهيئة العالمية لتدبر القرآن، وعضو هيئة التدريس في جامعة القصيم.

(٢) القدر: ١ - ٥.



السورةِ ثلاثَ مراتٍ لهذا السبب[١].

وقد ابتدأتْ السُّورةُ بالتنويهِ بفضْلِ القرآنِ وعَظَمَتِهِ؛ بإسنادِ إنزالِهِ إلى اللهِ تعالى، ورَفْعِ شأنِ الوقتِ الذي أُنزلَ فيه، ونُزولِ الملائكةِ في ليلةِ إنزالِه، وتفضيلِ الليلةِ التي تُوافِقُ ليلةَ إنزالِهِ مِن كلِّ عام.

ثم تحدَّثَتْ عن نُزُولِ جِبريلِ والملائكةِ الأبرار، بالأنوارِ والخيراتِ على عبادِ اللهِ المؤمنين، حتى طلوع الفجر.

وهذه بعضُ البصائرِ التدبُّريّة المهمَّة في السورة، فمنها:

ـ أنّ اسمَ السورةِ (القَدر) وهو الشرفُ والفضلُ والمكانةُ العالية، أو التَّدْبِيرِ والتَّقدِير، وهذا مُناسبٌ لما تحدَّثتْ عنه السورةُ مِن بيانِ عِظَمِ ليلةِ القدر، هذه الليلةُ التي تميَّزَتْ بابتداءِ نُزُولِ القرآنِ فيها، ونُزولِ الملائكةِ مع جبريل، وليس مِن شكٍّ أنّ حدوثَ مثلِ هذه الأمور فيه دلائلُ على: عَظَمةِ المُنزِلِ وهو الله، والمُنزَلِ وهو القرآن، والمُنزَلِ إليه وهو النبيُّ ﷺ.

---

(١) مفاتيح الغيب (٣٢/ ٢٨). ويروى في سبب نزولها عن مجاهد قال: كان في بني إسرائيل رجل يقوم الليل حتى يصبح، ثم يجاهد حتى يمسي فعل ذلك ألف شهر، فتعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون من ذلك، فأنزل الله قوله: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ أي قيام تلك الليلة خير من عمل ذلك الرجل ألف شهر.

ينظر: جامع البيان (٢٤/ ٥٤٦)، الدر المنثور (١٥/ ٥٣٥)

ومِن البصائر: أنّ سورةَ القدرِ جاءتْ في المُصحفِ بَعدَ سورةِ العَلَق، فكأنَّ الضميرَ في قولِه ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾؛ إيماءٌ إلى القرآنِ، الذي ابتدئ نزولُه بسورةِ العلق.

ومِن البصائر: أنّ قولَه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ اشتَمَلَتْ على تنويهٍ عظيمٍ بالقرآن، فتأمّل كيف افتُتِحَتْ بنونِ العَظَمَة ﴿إِنَّآ﴾، ثم الإخبار عنه بالجُملةِ الفِعليةِ ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾، وكلاهما من أساليبِ التأكيد.

ومِن البصائر: أنّ تَسميةَ ليلةِ القدرِ بـ﴿لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ دون (ليلةِ النُّزُول)! إمّا لِيكونَ ذِكرُها بهذا الوصفِ تشويقًا لمعرفتِها وتعظيمًا لها، أو بيانًا لِعِظَمِ قدرِ ما أُنْزِلَ فيها وهو القرآن، فتَعظِّمه الأمة، ولذلك عَقَّبَ بقولِه: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾.

ومِن البصائر: أنَّ قولَه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ دالٌّ على أنه أُنزِلَ جملةً واحدةً من اللوحِ المحفوظِ إلى بيتِ العِزةِ في السماءِ الدنيا في تِلك الليلة، ثم نَزَلَ مُفرَّقًا حَسَبَ الوقائعِ والأحداث، وكان أوّلَ ما نَزَلَ منه: صَدْرُ سورةِ العَلَقِ، في أوّلِ ليلةٍ نَزَلَ فيها جبريلُ على النبيِّ ﷺ، وهي ليلةُ القدر.

ومِن البصائر: أنَّنا نُدرِكُ عظمةَ هذه الليلةِ حين نَتَصَّورُ نُزولَ القرآنِ الذي شَهِدَتْه الأرضُ في هذه الليلة، وحين نَتَدبَّرُ حقيقةَ الأمرِ الذي تمَّ فيها، ونتملى

آثارَه المتطاولةَ في مراحلِ الزمان، وفي تصوراتِ القلوبِ والعقول؛ فإننا نَرَى أمرًا عظيمًا حَقًّا، ونُدرِكُ طَرَفًا من مَغزى هذه الإشارةِ القرآنيةِ إلى تلك الليلة: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾[1].

ومِن البصائر: أنّ الاستفهامَ في قولِه: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾؟ إشعارٌ بِعِظَمِها وفضلِها. وفيه دلالةٌ على أنَّ علوَّ قَدرِها خارجٌ عن دائرةِ دِرايَةِ الخَلْق، لا يَدريه ولا يَعلمُه إلا علامُ الغيوب[2].

ومِن البصائرِ في قولِه ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾: أنّ تَفضيلَ ليلةِ القدرِ بالخيرِ على ألفِ شهر، دَالٌّ على تضعيفِ فضلِ ما يحصُلُ فيها من الأعمال الصالحة.

ومِن البصائر: أنَّ ليلةَ القدرِ هي في حقيقتِها فرصةٌ لإطالةِ العُمْر، فألفُ شَهْرٍ تُعادِلُ تقريبًا اثنين وثمانين عامًا، فَمَن يُدركُ ليلةَ القَدرِ عَشرَ مَرّاتٍ؛ فكَأَنَّما عاشَ عِشرين وثمانمائة عامًا، ومَن أدرَكَها عِشرين مَرّة فكأنما عاش ألفًا وستمائةً وأربعين من الأعوام، وهكذا، وأيُّ نِعمةٍ أكبرُ مِن ذلك! وفضلُ اللهِ واسِع.

---

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٩٤٥).

(٢) تفسير أبي السعود (٩/ ١٨٢).

ومِن البصائر: أنَّ العِبْرةَ ليست بطولِ الأعمارِ، وإنما بحُسْنِ الأعمال، فليس المُهِمُّ الكم، وإنما الكيف، ورُبَّ لحظةٍ واحدةٍ هي في جَوهرِها خَيرٌ من الحياةِ كلِّها، فَليلةُ القدرِ تُعادِلُ اثنينِ وثمانينَ عامًا، وهذا ما يجعلُنا نَتعرَّضُ لِنَفَحاتِ الله، ونتعرضُ لمواسمِ الخيرِ المضاعَفَة.

ومِن البصائر: أنّ هذه السورةَ تُعظِّمُ في نفوسِنا ليلةَ القدر، وبيانَ مدى شرفِها وجليلِ قدرِها؛ وفي هذا ما يحفِّزُ المؤمنَ لِتَحرِّي تلك الليلةِ واغتنامِها حقَّ الاغتنام. وفيها كذلك بَيَانٌ لِعِظَمِ قَدْرِ القرآنِ، حيثُ جَعَلَ اللهُ نُزولَه في هذه الليلة المباركة العظيمة.

ومِن البصائر: أنّ التَّعبيرَ بالمُضارِعِ في قَوْله: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ﴾! دليل على أنّ هذا التَّنزُّلَ مُتكرِّرٌ في المستقبلِ في كلِّ عام، وأنَّ هذا من دلائلِ فضلِها وقَدْرِها، ويَظهرُ أنها تَنَزَّلُ جماعاتٍ وبكثْرَة، ولهذا عَبَّرَ بـ﴿ تَنَزَّلُ ﴾ بالتشديد دون (تَنْزِل) بالتخفيف.

ومِن البصائر: أنَّ كَثرَةَ تنزُّلِ الملائكةِ في هذه الليلةِ لِكَثرَةِ بَرَكَتِها، والملائكةُ يتنزَّلون مع تَنزُّلِ البركةِ والرحمة، كما يتنزلون عند تلاوةِ القرآنِ، ويحيطون بِحِلَقِ الذِّكْر، ويضعون أَجنحتَهم لِطالبِ العلمِ بِصدقٍ تَعظيمًا له[1].

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/ ٤٤٤).



وفي ذِكرِ تنزُّلِ الملائكةِ في هذه الليلةِ دليلٌ على كَثرةِ خيراتِ هذه الليلة، وما يصاحبُها من رَحَماتٍ تَتنزَّلُ بها الملائكةُ مِن رَبِّ الأرضِ والسموات.

ومِن البصائر: تخصيصُ تَنزُّلِ الروح -وهو جبريل-؛ لِكونِه الموكَّلَ بالوحي، وإظهارًا لِشَرَفِه وفضلِه، وشَرَفِ ما يَنزِلُ به مع الملائكةِ من السلامِ والرحمة.

ومن البصائر: أنَّ قولَه ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِم﴾ يَدُلُّ على عِظَمِ أَدَبِ الملائكةِ مع ربِّهم، في استئذانِهم إياه لِنزولِهم؛ لأنهم كانوا يَرغَبون إلى أهلِ الإيمانِ والذكر، ويَتَمنَّون لقاءَهم[1].

ومِن البصائر: أنَّ قولَه ﴿مِّن كُلِّ أَمۡرٍ﴾ يَدلُّ على أنَّ الملائكةَ تَنزلُ لأجلِ كلِّ أَمْرٍ فيه مصلحةُ المكلفين، ولذا فإنَّ لَفظَ الأمرِ يَعُمُّ خَيرَ الدنيا والآخرة.

ومن البصائر: أنَّ اللهَ وَصَفَ هذه الليلةَ بأنها سَلَام، وفي هذا دليلٌ على أنها سلامٌ في السماءِ والأرض، إلّا ما يكونُ مِن قِبَلِ المُكَلَّفينَ المخيَّرِينَ مِن إنسٍ وجِنٍّ[2].

ومِن البصائرِ: أنَّ وَصْفَها بأنها سلام، تَشبيهٌ لها بالجَنَّةِ في نعيمِها وفَضلِها، ولذلك وَرَدَ أنَّ الملائكةَ تُسَلِّمُ فيها على الطائعين، كما رُوِيَ عن الحسنِ قال: إذا كان ليلةُ القدرِ لم تَزَلِ الملائكةُ تخفقُ بأجنحتِها بالسلامِ من اللهِ والرحمةِ، مِن لَدُن صلاةِ المغربِ إلى طلوعِ الفجر[3].

---

(١) مفاتيح الغيب (٣٢/ ٣٢).
(٢) معارج التفكر (٢/ ٣٠٠-٣٠١) باختصار.
(٣) الدر المنثور (١٥/ ٥٣٩).



ومِن البصائرِ: أنّ مِن السلامِ الذي حَصَلَ في هذه الليلةِ المباركةِ للبشريةِ نُزُولُ القرآن، الذي يُحَقِّقُ لها في الدنيا السلام، ويَهدي مَن اتَّبعه دارَ السلامِ يوم القيامة.

ومِن البصائر: أنه وَرَدَ عن ابنِ عباسٍ أنَّ ليلةَ القدرِ هي ليلةُ السابعِ والعِشرين، واستدلَّ بأنَّ السورةَ ثلاثون كلمة، وكلمةُ ﴿هِىَ﴾ التي في السورة، هي الكلمة السابعة والعشرون.

ومِن البصائر: أنّ ذِكْرَ نهايتِها في قولِه ﴿حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ للتعريفِ بمنتهاها؛ لِيحرِصَ الناسُ على كَثرةِ العَمَلِ فيها قَبلَ انتهائِها، فذِكْرُ نهايةِ الشيءِ مُحفِّزٌ لاستثمارِه قَبلَ انتهائِه[1].

ومِن البصائر: أنَّ الإتيانَ بحرفِ ﴿حَتَّىٰ﴾ التي هي لانتهاءِ الغاية، وذلك دّالٌّ كما ذَكَرَ بعضُ أهلِ العلمِ على أنَّ ليلةَ القدرِ تمتدُّ بَعدَ مَطلَعِ الفجر، بحيثُ أنّ صلاةَ الفجرِ تُعتَبرُ مِن تلك الليلة، وهذا تَوسِعةٌ مِن اللهِ في امتدادِ الليلةِ إلى ما بَعدَ طلوعِ الفجر. والله أعلم[2].

---

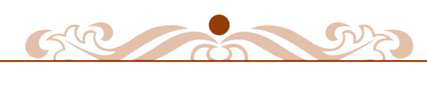
(١) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٦١).
(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٤٦٦).



وختامًا -أيها الإخوة- فإنّ هذه السورةَ عظيمةُ القدرِ في مضمونِها ودلالاتِها، فحَرَيٌّ بالمسلمِ أنْ يُعظِّمَها، ويُعظِّمَ ما عَظَّمَه اللهُ، ويَستَغلَّها بالطاعةِ والإنابةِ والتوبة.

اللهم كما مَنَنتَ على أُمّةِ محمدٍ ﷺ بهذه الليلة، اللهم فاجعل لنا فيها أَوْفَرَ الحظِّ والنَّصيبِ مِن واسعِ مَغفِرتِك ورَحمتِك، واغفر اللهم لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.





المجلس الحادي والعشرون

مناجاة نبي [1]

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على عبدِهِ ورسولِهِ ومصطفاه، أما بعد:

فيقولُ اللهُ تعالى في سورةِ إبراهيم، عن نبيِّه وخليلِه إبراهيمَ عليه الصلاةُ والسلامُ:

﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾[2].

إنها مناجاةُ أبٍ كبيرٍ في السِّن، رزقَهُ اللهُ الولدَ على كِبَر، فحَمِدَ ربَّه، وأثنى عليه، وتَوجَّهَ نحوَ ربِّه مناجيًا في شأنِ ذريتِه مِن بَعدِه، فقد مضى أكثرُ عُمرِه فلم يبقَ له مِن العمرِ إلا القليل، فمَن سيحفظُ أبناءَه مِن بعده إلا الله، ونِعْمَ بالله حافظًا وكفيلًا.

---

(١) للدكتور عويض العطوي، عميد البحث العلمي في جامعة تبوك.

(٢) إبراهيم: ٣٧.

إنه خليلُ اللهِ إبراهيمُ -عليه السلام-؛ يَشغلُه شأنُ أسرتِه في مكة، فالمكانُ لا زرع فيه ولا أُنس، فكيف سيعيشون؟! فيَعرِضُ ذلك على ربِّه عَرْضًا لطيفًا فيقول: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾، «أي: بوادٍ لا يصلُح للنَّبْتِ لأنه حِجارة، فإنّ كلمةَ (ذُو) تدلُّ على صَاحِبِ ما أُضيفت إليه، وتمكُّنُه منه، فإذا قيل: ذو مال، فالمالُ ثابتٌ له، وإذا أُريدَ ضد ذلك قيل: غيرُ ذي كذا، كقوله تعالى: ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٍ﴾[1]، أي: لا يَعتريه شيءٌ من العِوَج، ولأجلِ هذا الاستعمال لم يقل: بوادٍ لا يُزرع أو لا زرع به»[2].

إنه يخافُ عليهم مِن الهلاك، ويأخُذُ بأسبابِ العيشِ والحياة، ويُبيِّنُ السببَ في إسكانِهم عند البيتِ المحرمِ فيقول: ﴿لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، إنه مَلمَحٌ مُهِمٌّ؛ أنْ يختارَ الأبُ مكانَ إقامةِ أسرتِه، فلا يَهتمُّ دائمًا برغباتِ الجَسَدِ وملذاتِ الحياة، مِن الأماكنِ الجميلة، والمواقعِ المميزة؛ ويَنسى شأنَ الرُّوح، بل عليه أنْ يُقدِّم أولًا ما يُغذِّي هذه الروح، وما يُساعِدُ على صلاحِ أبنائِه، فالمكانُ له أثرُه في التربية، فمكةُ بلدٌ لا زرعَ فيه، ولا يوجدُ فيها مما تشتهيهِ نفوسُ الناس شيء، لكنْ فيها الإيمانُ والتوحيدُ وعبادةُ رب العالمين، لذا قال: ﴿لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، إنه هَدَفٌ نبيلٌ على كلِّ أب أنْ يَضعَهُ أمامَ عينيهِ وهو يخطِّطُ لحياته وحياةِ أبنائِه، فالمكانُ الذي تتهيأُ فيه دُورُ العبادةِ؛ أفضلُ من المكانِ الذي تَقِلُّ فيه، والمكانُ الذي يُذكَرُ فيه اسمُ الله كثيرًا؛ خيرٌ من الذي لا يُذكَرُ فيه إلا قليلًا.

---

(١) الزمر: ٢٨.
(٢) التحرير والتنوير - (٧/ ٤٤١).

ثم إنّ إبرازَ الصلاةِ هنا على وجه الخصوص؛ يُشير إلى أنَّ مما اهتمَّ به الأنبياءُ الكرامُ -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين- في تربيتِهم لأولادِهم بعد شأنِ التوحيدِ والخوفِ من الشرك؛ هو شأنُ الصلاة، ولهذا شواهدُ كثيرةٌ في القرآن، يُمكنُ رصدُها في قصصِ الأنبياءِ -عليهم السلام- مع أولادِهم.

ولا يَنسى الأبُ الرحيم، ما تُسبِّبُه الوحدةُ للإنسانِ مِن وحشةٍ وضيقٍ في الصدر، فيسألُ ربَّه ويقول: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾، وهذا يُشيرُ إلى أنَّ الانقطاعَ عن الناسِ والبُعد عنهم ليس مَرغوبًا، فكثيرٌ من العباداتِ لا تَتحقّقُ إلا بمخالطةِ الناس، والعيشِ معهم.

ثم إنه ذَكر الأفئدةَ فقال: ﴿أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾، ولم يقل: فاجعل بعضَ الناس؛ وذلك لأنَّ الفؤادَ إذا هوى مكانًا تعلَّق به، فهو يُريدُ أُناسًا يَبقون ويألفون هذا المكانَ لِيعمروه، لا أنْ يمرُّوا عليه ويتجاوزوه، وفي التعبيرِ بالأفئدةِ هنا رِقَّةٌ ولطف، تصور القلوب رفافة مجنحة، وهي تهوي إلى ذلك البيتِ وأهلِه في ذلك الوادي الجديب. إنه تعبيرٌ نديٌّ يُندِّي الجدبَ برقّةِ تلك القلوب [1].

ثم إنّ هذا المكانَ الذي لا زرع فيه ولا سُكّان لن يَؤُمَّه أحد، ولن يَستقرَّ فيه أحد، ولن يكونَ ذلك إلا بِصَرْفِ أفئدةِ بعضِ الناس إليه، ولهذا تبقى مكةُ

---

(١) انظر: «في ظلال القرآن» (٤ / ٤١١).

خاليةً من أسبابِ الجذبِ المعروفةِ لدى الناسِ؛ مِن لَطافةِ الجو، وكثرةِ الخُضرة، وجَرَيانِ الماء، وكثرةِ الزروع وغيرِها، ومع هذا هي أعظمُ مكانٍ يَؤُمُّهُ الناسُ على مدى التاريخ، وذلك ليبقى المحرِّكُ الوحيدُ لهم في ذلك هو طاعةُ الله، ورجاءُ أجرِه سبحانه.

وقد قال إبراهيمُ -عليه السلام-: ﴿أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾، وربما لو قال: (أفئدةَ الناس) لجاءَ كلُّ البشر، ولما استوعبَهم المكان، وللهِ في خَلقِهِ شأنٌ وحكمةٌ.

كما لا ينسى الأبُ الرحيمُ أهلَ بيتِه في معيشتِهم؛ بل يدعو اللهَ لهم فيقول: ﴿وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾، وفي هذا المقطعِ مجموعةٌ من الدلالاتِ واللطائف:

فيه أنّ عِنايةَ المربي برزقِ أهلِ بيتِه أمرٌ مهم، وهو شأنٌ لا يُلامُ عليه، بل هو مسؤولٌ عن ذلك، ولا يصحُّ ما نراه من تضييعِ بعضِهم لمسؤوليةِ أهليهِم ومعيشتِهم، فهو مَشغولٌ عنهم دائمًا، يذهبُ وهم نائمون، ويعودُ وهم نائمون، حتى إنَّ بعضَ الأُسَرِ لَتعيشُ على الصدقاتِ ومساعداتِ الآخرين؛ والأبُ موسِرٌ وعلى قيدِ الحياة.

وفيه أيضًا أنّ ذِكْرَ ﴿ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ يُشيرُ أنها مِن أعظمِ أنواعِ الأمنِ الغِذائي، وقد يكون في ذلك إشارةٌ إلى الزراعةِ فيما يصلح لها قرب مكة، أو

إلى جَلبِ الثمراتِ إليهم من أقطارِ الأرضِ البعيدة، وهو ما يؤيدُه قوله تعالى: ﴿يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾[١]. يقول أبو السعود: «وقد حَصَلَ كلاهما حتى إنّه يجتمعُ فيه الفواكهُ الربيعيةُ والصيفيةُ والخريفيةُ في يوم واحد»[٢].

وفيه أيضًا إشارةٌ إلى تربيةِ الأُسرةِ على شكرِ النعمة، حيث قال: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ فلا يكفي حصولُ النِّعمِ؛ بل لا بُدَّ مِن فِعلِ أسبابِ بقائِها، كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ﴾[٣].

ومما يُستفادُ مِن هذه المناجاة: معرفةُ آدابِ السؤالِ والتضرع، وقد كان «في دعائِهِ عليه السلام مِن مراعاةِ حسنِ الأدبِ، والمحافظةِ على قوانين الضَّراعةِ، وعَرْضِ الحاجة، واستنزالِ الرحمةِ، واستجلابِ الرأفةِ ما لا يخفى، فإنه عليه السلام بِذِكْرِ كونِ الوادي غيرَ ذي زرعٍ بيّن كمالَ افتقارِهم إلى المسؤول، وبِذِكْرِ كونِ إسكانِهم عند البيت المحرَّمِ أشار إلى أنّ جِوارَ الكريمِ يستوجبُ إفاضةَ النعيم، وبِعرْضِ كونِ ذلك الإسكانِ مع كمالِ إعوازِ مرافقِ المعاشِ لمحضِ إقامةِ الصلاةِ وأداءِ حقوقِ البيتِ مَهّدَ جميعَ مبادئ إجابةِ السؤال، ولذلك قُرِنَتْ دعوتُه عليه السلام بحُسنِ القبول»[٤].

---

(١) القصص: ٥٧.
(٢) تفسير أبي السعود - (٤/ ٤٢).
(٣) إبراهيم: ٧.
(٤) تفسير أبي السعود - (٤/ ٤٢).

إنها معالمُ تربويةٌ مهمةٌ نَستَلْهِمُها من قصصِ الأنبياءِ الكرام مع أبنائهم، ولن نجدَ نموذجًا أرقى ولا أعظمَ منهم.

هذه ـ أيها المؤمنون ـ بعضُ دلائلِ هذه المناجاة النبوية، فما أجملَ التأسي به، ومراعاةَ الأدبِ وعلوِّ الهمةِ في دعواتِنا.

اللهم ارزقنا الأدبَ معك، وصدقَ اللجأِ إليك، واغفر اللهم لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.





المجلس الثاني والعشرون

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾[1]

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على عبدِهِ ورسولِهِ ومصطفاه، أما بعد:

فيقولُ اللهُ تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾[2].

هذه آيةٌ قرآنيةٌ إيمانية، لها صلةٌ عظيمةٌ بعبادةٍ من أعظمِ العبادات، ألا وهي عبادةُ الدعاء.

وهذه الآيةُ المُتَعَلِّقَةُ بالدعاءِ جاءت مُتوسِّطةً بين عددٍ من آياتِ الصيام، وكأنها -والله أعلم- تُشيرُ إلى أهميةِ الدعاءِ في رمضان، والدعاءُ عمومًا -في رمضانَ وفي غيرِه- له شأنٌ عظيم، بل هو صفةُ عبادِ اللهِ الصالحين ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾[3].

يا أمةَ القرآن! لقد انطوتْ هذه الآية الكريمة - ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ - على جملةٍ من الهدايات، منها:

---

(١) للدكتور عمر بن عبدالله المقبل، نائب رئيس مجلس إدارة الهيئة العالمية لتدبر القرآن، والأستاذ المشارك في جامعة القصيم.

(٢) البقرة: ١٨٦.

(٣) الأنبياء: ٩٠.



أولًا: أنّ القرآنَ قد اشتملَ على أربعةَ عشر سؤالًا، وكلُّها تبدأ بـ(يسألونك)، ثم يأتي الجواب بـ:(قل) أو(فقل)، إلا هذا الموضع الوحيد، فإنه بدأَ بهذه الجملة الشرطية: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى﴾، وجاء جوابُ الشرطِ من دون الفِعل: قل، بل قال: ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾، فكأنّ هذا الفاصل -(قل)- مع قِصَرِه، كأنه يُطيلُ القُرْبَ بين الداعي وربِّه، فجاء الجوابُ بدون واسطةٍ؛ بل قال: ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ تَنبيهًا على شِدَّةِ قُرْبِ العبدِ مِن ربِّه في مقامِ الدعاء!.

ولو تأمَّلتَ -أيها المبارك- في قولِه: ﴿عِبَادِى﴾ فكمْ في هذا اللفظِ مِن الرَّأْفةِ بالعباد؛ حيثُ أضافَهم إلى نفسِهِ العَليّةِ سبحانه وبحمده! فأين الدَّاعون؟ وأين الطارقون لأبوابِ فضلِه؟! وهو قد حَثَّهم سبحانه على الدعاءِ فقال: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾[(١)] وقال جل وعلا: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[(٢)].

وأما قولُه سبحانه: ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ ففيها إثباتُ قُربِهِ مِن عبادِه جل وعلا، وهو قُربٌ خاصٌّ بِمَن يَعبدُه ويدعوه، وهو- واللهِ - مِن أعظمِ ما يَدفعُ المؤمنَ للنشاطِ في دعاءِ مولاه.

ولْتنظر -أيها المؤمن- في نتيجةِ ذلك التضرُّع، ألا وهي في قوله:

(١) الأعراف: ٥٥.
(٢) غافر: ١٤.



﴿أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ﴾ ففي هذا ما يدُلُّ على قدرةِ اللهِ وكمالِ سمعِهِ سبحانه، وهذا ما لا يَقدِرُ عليه أيُّ أحدٍ إلا هو سبحانه! وقد قال جل وعلا: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾[1] فقد وعد سبحانه بالاستجابةِ لمن دعاه وهو موقِنٌ بالإجابة.

إنّ أيَّ مَلِكٍ مِن مُلُوكِ الدنيا -ولله المثلُ الأعلى- مهما أُوتي مِن القوةِ والسلطانِ لا يمكنُه أنْ يُنفّذَ كلَّ ما يُطلَبُ منه؛ لأنه مخلوقٌ عاجز، لا يستطيع أنْ يدفَعَ عن نفسه المرضَ والموتَ، فضلًا عن غيره، فتباركَ اللهُ القويُّ العزيز، الرحيم الرحمن.

لكنْ تأمَّل -أيها المؤمن- في قولِه تعالى: ﴿إِذَا دَعَانِ﴾، ففيها إشارةٌ إلى أنّ مِن شَرطِ إجابةِ الدعاءِ أن يكونَ الداعي حاضِرَ القلبِ حينما يدعو ربه، وصادقًا في دعوةِ مولاه، بحيثُ يكونُ مخلِصًا مُشعرًا نفسَه بالافتقارِ إلى ربه، ومُشعِرًا نفسَه بِكرمِ الله، وجُودِه[2].

ثانيًا: ومن هداياتِ هذه الآيةِ ودلالتِها:

أنّ اللهَ تعالى يجيبُ دعوةَ الداع إذا دَعاه؛ ولا يَلزَمُ مِن ذلك أنْ يجيبَ مَسألتَه؛ لأنه تعالى قد يؤخِّرُ إجابةَ المسألةِ ليزدادَ الداعي تَضرُّعًا إلى الله، وإلحاحًا في الدعاء؛ فيَقْوَى بذلك إيمانُه، ويزداد ثوابُه؛ أو يدّخره له يومَ القيامة؛ أو يدفع

---

(١) غافر: ٦٠.

(٢) ينظر فيما سبق: مفاتيح الغيب: (٥/ ٨٤)، وتفسير القرآن الكريم للعثيمين: (١/ ٣٤٥).

عنه من السوءِ ما هو أعظمُ فائدةً للداعي؛ وهذا هو السِّرُّ - والله أعلم - في قوله تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ﴾[1].

ثالثًا: ومن هداياتِ هذه الآيةِ ودلالتِها وتاجِها -﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾-:

أنّك تَلحظُ فيها سِرًّا من أسرارِ عظمةِ هذا الدين، وهو التوحيد، فهذا ربُّك -أيها المؤمن- وهو مَلِكُ الملوك، القهارُ الجبار، الذي لا يُشبه مُلْكَه مُلكٌ، ولا سُلْطَانَه سلطانٌ - لا تحتاجُ إذا أردتَ دعاءَه إلى مَواعِيد، ولا إلى أُذُونات، ولا شيءٍ من ذلك، إنما هو رَفْعُ اليدين، مع قلبٍ صادق، وتَسألُ حاجتَك، كما قال بَكرُ بنُ عبدِ اللهِ المُزَني - أحدُ ساداتِ التابعين -: «مَن مِثلُك يا ابنَ آدم! خُلِّي بينك وبين المحراب، تَدخلُ منه إذا شئتَ على ربك، وليس بينك وبينه حجابٌ ولا ترجمان»؟![2]، فيا لها مِن نعمةٍ لا يعرفُ قدرَها إلا الموفَّق.

وإذا تبيَّنَ وقعُ هذه العبادةِ الجليلة، فإنك ستُدْرِكُ أنّ الحرمانَ الحقيقيَّ للعبدِ حينما يُحرَمُ طَرْقَ الباب، وأن تُنسيَه نفسُه هذا السبيلَ العظيم! كما قال أبو حازم: لَأَنا مِن أنْ أُمنع الدعاء، أَخْوَفُ مني مِن أَنْ أُمنع الإجابة[3].

«وقد أَجمَعَ العارفون أنّ التوفيقَ أنْ لا يَكلِكَ اللهُ إلى نفسِك، وأنَّ الخذلانَ

---

(١) تفسير القرآن الكريم للعثيمين: (١/ ٣٤٥).
(٢) حلية الأولياء: (٢/ ٢٢٩).
(٣) حلية الأولياء: (٣/ ٢٤١، ٧/ ٢٨٨).

هو أنْ يُخَلِّيَ بينك وبين نفسِك، فإذا كانَ كلُّ خيرٍ فأصلُه التوفيق، وهو بيدِ اللهِ لا بيدِ العبد، فمفتاحه الدعاءُ والافتقارُ وصدقُ اللجأ والرَّغبة والرهبة إليه، فمتى أَعطى العبدَ هذا المفتاحَ فقد أرادَ أَنْ يفتحَ له، ومتى أَضلَّه عن المفتاحِ بقي بابُ الخيرِ مُرتجًا دونه، قال أميرُ المؤمنين عمرُ بنُ الخطاب -رضي الله عنه-: (إني لا أَحملُ همَّ الإجابة، ولكني أَحملُ همَّ الدعاء، فإذا أُلهمتُ الدعاءَ فإنَّ الإجابةَ معه).

وعلى قَدْرِ نيةِ العبدِ وهمته ومُرادِه ورغبتِه في ذلك يكونُ توفيقُه سبحانه وإعانتُه، فالمعونةُ من الله تنزِلُ على العبادِ على قَدْرِ هِمَمِهم وثَباتِهم ورَغبتِهم ورَهبتِهم، والخذلانُ ينزلُ عليهم على حسب ذلك،... وما أُتيَ مَن أُتيَ إلا مِن قِبَلِ إضاعةِ الشكر، وإهمالِ الافتقارِ والدعاء، ولا ظَفَرَ مَن ظَفَر -بمشيئةِ اللهِ وعونِه- إلا بقيامِه بالشُّكر، وصِدْقِ الافتقارِ والدعاء»[١].

ومِن المعاني المهمةِ التي ينبغي أنْ يَستحضرَها العبدُ -وهو في مقام الدعاء - ما أَشَارَ إليه الإمامُ أبو سليمان الخطابي رحمه الله- وهو يَتحدَّثُ عن الحكمةِ مِن مشروعيةِ الدعاءِ - فيقول: «وقد قَضَى اللهُ سبحانَه أنْ يكونَ العبدُ ممتَحَنًا ومُستعمَلًا، ومُعلَّقًا بين الرجاء والخوف -اللذين هما مَدرجتا العبودية- ليَستخرجَ منه بذلك الوظائفَ المضروبةَ عليه، التي هي سِمَةُ كلِّ عبد، ونِصْبةُ كلِّ مَربوبٍ مُدَبَّرٍ»[٢].

---

(١) ابن القيم في الفوائد: (١٨١).
(٢) شأن الدعاء: (٩-١٠).

رابعًا: ومِن هداياتِ هذه الآيةِ ودلالتِها:

استحبابُ الدعاءِ عند الفِطرِ في رمضانَ وغيرِه، وهذا ما يدلُّ عليه ظاهرُ القرآن، وفعلُ السلف، وفي السُّنةِ المرفوعةِ أحاديثُ لا تخلو مِن مَقال، ولكنْ ها أنت ترى ظاهرَ القرآنِ يَعضُدُها، ووَجْهُ الدلالةِ مِن الآياتِ على هذا المعنى: أنّ اللهَ تعالى ذَكَرَ هذه الآيةَ -آية الدعاء- بُعَيْدَ آياتِ الصيام وقُبيلَ آية إباحةِ الرَّفَثِ في ليلِ الصيام، «وفي ذِكرِه تعالى هذه الآيةَ الباعثةَ على الدعاءِ مُتخلِّلَةً بين أحكام الصيام، إرشادٌ إلى اجتهادٍ في الدعاءِ عند إكمالِ العِدَّةِ، بل وعند كلِّ فِطر»[1].

فما أَجمَلَ العبدَ وهو يُظهِرُ فَقرَه وعبوديتَه بِدعاءِ مولاه، والانكسارِ بين يدي خالقِه ورازقِه، ومَنْ ناصيتُه بيدِه!

وما أسعدَه حينما يَهتَبِلُ أوقاتَ الإجابةِ ليناجيَ ربَّه، ويسألَه مِن واسِعِ فضلِه في خَيرَي الدنيا والآخرة!

نسألُ اللهَ تعالى أن يرزُقَنا صدقَ اللجأِ إليه، والانطراحَ بين يديه، وكمالَ التضرُّعِ له، وقوةَ التوكلِّ عليه، وأن لا يُخيِّبَ رجاءَنا فيه، ولا يردَّنا خائبين بسببِ ذنوبِنا وتقصيرِنا.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



(١) تفسير ابن كثير: (١/ ٢٧٣).



المجلس الثالث والعشرون

﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾[1]

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإنّ الحديثَ هاهنا سيدورُ حولَ هدايةِ قولِ الله -تعالى-: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾[2]. فهذه آيةٌ عظيمةٌ في أول سورةٍ نزلتْ في القرآن، وهي سورة العلق.

آيةٌ تَهُزُّ الوجدان، وتفعلُ في النفس ما لا تفعلُهُ سُلُطاتُ الدنيا، ولا أحدثُ التقنيات في عالم المخابرات. آيةٌ تضبِطُ النوازع، وتقوِّي الوازع، وتكْبَحُ الجماح، وتدعو إلى إحسانِ العمل، وكمالِ المراقبة. وقد جاءت بهذا البيانِ المعجزِ الذي لا تصل إليه قوةُ بَشَر. جاءت بهذا التعبيرِ الواضح مُبِيْنَةً عمّا تحتها من معنى، جاءت بصيغة الاستفهام: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾؟

وتحت هذه الآيةِ من اللطائفِ والأسرارِ الشيءُ الكثير؛ ففيها إشارةٌ إلى وجوبِ المراقبة لله -عز وجل-، وفيها تهديدٌ لمن يتمادى في الغَيّ، وفيها تلويحٌ

---

(١) للدكتور محمد بن إبراهيم الحمد، عضو هيئة التدريس في جامعة القصيم.
(٢) العلق: ١٤.



إلى وجوبِ الإقصارِ عن الشر، وفيها تلميحٌ إلى أنَّ العلمَ باطِّلاع اللهِ -عز وجل- على الخلائقِ أمرٌ فِطْريٌّ لا يحتاج إلى دليل، وفيها تعريضٌ بغباوةِ مَنْ يجهلُ هذه الحقيقة، أو يكابِرُ في شأنها.

فيا لله ما أجملَ أن يَستحضِرَ كلُّ أحدٍ هذه الآيةَ إذا امتدت عينُه إلى خيانة، أو يَدُه إلى حرام، أو سارتْ قدَمُه إلى سوء، أو تحرَّكَ لسانُه بقبيح. وما أروعَ أن تكونَ هذه الآية نُصْبَ أعيُنِنا إذا أردْنا القيامَ بما أُنيط بنا من عمل.

وفي هذا سرٌّ بديعٌ، ودرسٌ عظيمٌ تُفِيد منه الأمةُ بعامَّة، ويفيد منه الأفرادُ بخاصَّة؛ فواجبٌ على المصلحين وقادةِ الأُمم أن يتنبَّهوا لهذا المعنى، وأن يَحرِصوا على إشاعتِه في الناس؛ ذلكم أنَّ وازعَ الدينِ والمراقبةِ لربِّ العالمين يفعل في النفوس ما لا يفعله وازعُ القوَّةِ والسلطان؛ فإذا أَلِفَ المرءُ أنْ يراقِبَ ربَّه، ويستحضرَ شهودَه واطّلاعَه عليه: فإن المجتمعَ يأمنُ بوائقَه، ويستريحُ من كثيرٍ من شروره. أما إذا كان الاعتمادُ على وازعِ القوة، وحارسِ القانون: فإنّ القوةَ قد تضعُف، وإنّ الحارسَ قد يغفَل، وإن القانونَ قد يُؤَوَّل، وقد يُتَحايلُ؛ للتخلُّصِ من سلطانِه.

لذلك تَكثُرُ الجرائمُ والمفاسدُ إذا قَلّت التربيةُ الدينيةُ في مجتمعٍ ما، فإذا أَشَعْنَا هذا المعنى في الناس، وعَمَدْنا إلى تربيتِهم بأسلوب الدينِ والفضيلة أَرَحْنا واسترحنا، ووفَّرْنا جهودًا كبيرة، وقد تكونُ ضائعةً في غيرِ ما فائدة؛ فالمراقبةُ حارسٌ قويٌّ يمنعُ الإنسانَ من التفكيرِ في الجرائمِ والشرور، والتقصيرِ في أداءِ الحقوق.

فلا عَجَبَ -إذًا- أن تكونَ هذه الآية في أوّل سورةٍ نزلتْ من القرآن الكريم؛ لكي يكونَ المؤمنُ على ذِكْرٍ من هذا المقامِ العالي، الذي إذا تَمَثَّلَه كان في قبيل المحسنين، الذين يعبدون الله كأنهم يرونه، فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم.

وتلك هي مرتبةُ الإحسانِ التي هي أعلى مراتب الدين، والتي إذا استشعرها المؤمنُ حالَ قيامِه بعبودية ربه كان عملُه مُتْقَنًا مُضاعَفًا؛ فإذا صلى مُستشعرًا ذلك المعنى تضاعفَ أجرُ صلاتِهِ، وهكذا بقيةُ الأعمال الصالحة.

ولعلّ الصيامَ من أعظمِ العباداتِ التي تتجلى بها عبوديةُ المراقبة؛ فالصيامُ مدرسةٌ لقيام تلك العبوديةِ العظمى؛ ذلكم أنّ الصائمَ يُمسكُ عن المفطّراتِ طيلةَ النهار، فتراه أمينًا على نفسه، رقيبًا عليها في الصغيرةِ والكبيرة، متمثِّلًا هيبةَ مولاه، واطلاعَه، وشهودَه كَأتمِّ ما يكون، فلا تحدِّثُه نفسُه بتناول مُفطِّرٍ ولو قلّ، ولا يَخْطُرُ ببالِهِ أن يَنْقُضَ صيامَه ولو توارى عن الأعين؛ فَيَصِلُ بذلك إلى مرتبةِ الإحسان؛ حيث يعبُدُ اللهَ كأنه يراه. ولهذا خصّ اللهُ -عز وجل- الصيامَ من بين سائرِ الأعمالِ بأنه له، وهو يجزي به.

فقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «كلُّ عملِ ابنِ آدم له، الحسنةُ بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف» قال الله -عز وجل- في الحديث: «إلا الصيام؛ فإنه لي وأنا أجزي به؛ إنه ترك شهوته وطعامه وشرابه من أجلي»[1]. وفي رواية: «كلُّ عملِ ابنِ آدم له إلا الصيام فإنه لي».

---

(١) البخاري: (١٨٩٤)، ومسلم: (١١٥١).

فالصيامُ سِرٌّ بين العبد وبين ربه لا يَطّلع عليه غيرُه؛ فإنه مُركَّبٌ من نيَّةٍ باطنةٍ لا يطَّلِعُ عليها إلا الله، وتركٍ لتناولِ الشهواتِ التي يُستَخفى في تناولها في العادة؛ فإذا تَرَكَ ما تدعوه إليه نفسُه لله -عز وجل- حيث لا يَطَّلِعُ عليه غيرُ مَنْ أمَرَهُ ونهاه، دلَّ ذلك على صحةِ إيمانِه، واللهُ -عز وجل- يحبُّ من عباده أن يعاملوه سِرًا بينهم وبينه، وأهلُ محبتِهِ يحبُّون أن يعاملوه هكذا؛ فإذا استشعر الصائمُ هذا المعنى العظيم انبعث إلى مراقبةِ الله -عز وجل- في شتى شؤونِه؛ فالذي يطَّلعُ عليه في صيامِهِ مُطَّلعٌ عليه في جميعِ أحوالِه.

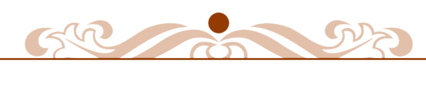
وإذا راقب الإنسانُ ربَّه، واحترمَهُ في خلواتِه أظهرَ اللهُ فضلَه، ورَفَعَ ذِكْرَه؛ فالجزاء من جنس العمل، ومن يعملْ سوءًا يُجزَ به.

قال أبو حازم -رحمه الله-: «لا يُحْسِنُ عبدٌ فيما بينه وبين الله -عز وجل- إلا أحسنَ اللهُ فيما بينه وبين الناس، ولا يُعَوِّر -أي: يُفسد- فيما بينه وبين الله -عز وجل- إلا عَوَّر اللهُ فيما بينه وبين العباد، ولَمُصَانعةُ وجهٍ واحدٍ أيْسرُ من مصانعةِ الوجوهِ كلِّها؛ إنك إذا صانَعْتَ اللهَ مالت الوجوهُ كلُّها إليك، وإذا أفسدتَ ما بينك وبين اللهِ شنأتْك الوجوهُ كلُّها»[1].

اللهم ارزقنا خشيتك في الغيب والشهادة، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.



(١) حلية الأولياء ٣/ ٢٣٩.



المجلس الرابع والعشرون

﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾[1]

الحمد لله، والصلاة والسلام على عبده ورسوله ومصطفاه، أما بعد:

فمِن السُّورِ العظيمةِ التي يحفظُها عامةُ المسلمين، سورةُ التكاثر، وقد تضمّنتْ معانيَ عظيمةً، يَحْسُنُ بنا أن نتوقَّفَ عندها، خاصةً ونحن في عَصْرٍ عَظُمَ فيه التكاثُر، فما أحوجَنا إلى معرفةِ مَنْهجِ القرآنِ في الحديثِ عن التكاثر في ضوءِ سورةِ «التكاثر»:

فهذه السورةُ أُخْلِصَت للوعدِ والوعيدِ والتهديد، وكفى بها موعظةً لمن عَقَلَها، فقوله تعالى: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾[2] أي: شَغَلَكم على وَجْهٍ لا تُعْذَرون فيه، فإنّ الإلهاءَ عن الشيءِ هو الاشتغالُ عنه.

وتأمّلْ في قوله: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ﴾ فهو أبلغُ في الذمِّ مما لو قال: شَغَلَكم، فإنّ العاملَ قد يَستعملُ جوارحَه بما يعملُ وقلبُه غيرُ لاهٍ به، فاللهوُ هو ذهولٌ وإعراض، والتكاثر تفاعُل؛ من الكَثْرة، أي: مُكاثَرةُ بعضِكم لبعض.

---

(١) ملخصٌ من مجموع كلام العلّامتين: ابن القيم وابن عثيمين -رحمهما الله- على هذه الآية وعلى هذه السورة الكريمة، بتصرف واختصار.

(٢) التكاثر: ١.



والله تعالى لم يذُمَّ الكثرة، ففي الصحابة أغنياء، وفي الأنبياء ـ قبل ذلك ـ مُلوكٌ لا يُداني مُلكَهم أحدٌ، وإنما ذمّ اللهُ التكاثرَ الذي سببُه الفخرُ والكِبْرُ، وأَثَرُهُ: الإلهاءُ والإشغالُ، ويَحْمِلُ على الأَشَرِ والبَطَرِ، ونسيانِ الشُّكر.

ولم يَذْكُرِ اللهُ تعالى ما الشيءُ الذي يَتَكاثَرُ به العباد؟ ليشْمَلَ كلَّ شيءٍ يَتَكاثَرُ به العباد! وأنَّ كلَّ ما يُكَاثِرُ به العبدُ غَيْرَه ـ سوى طاعةِ اللهِ ورسولِه، وما يعودُ عليه بنفعِ معادِه ـ فهو داخلٌ في هذا التكاثر. فالتكاثرُ في كلِّ شيء: من مالٍ، أو جاهٍ، أو رياسةٍ، أو نِسوةٍ، أو حديثٍ، أو علم ـ ولا سيما إذا لم يُحْتَجْ إليه ـ والتكاثرُ في الكتب، والتصانيف، وكثرةِ المسائل، وتفريعِها وتوليدِها، وقُلْ مثلَ ذلك في التكاثر في عصرِنا بكثرةِ المراكب، والأَسْهُم، والعقارات!

والتكاثر أنْ يطلُبَ الرجلُ أن يكونَ أكثرَ من غيرِه، وهذا مذمومٌ إلا فيما يُقرِّبُ إلى الله، فالتكاثر فيه منافسةٌ في الخيرات، ومسابقةٌ إليها.

وإنما ذمَّ اللهُ التكاثرَ بالأموالِ والأولادِ على الوَجهِ المذموم؛ لأنه من أعظم ما يُلهي النفوسَ عن الله والدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ٢ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٣ ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾[1] فكُلُّ مَنْ شغلَهُ وألهاهُ التكاثرُ بأمرٍ من الأمورِ عن اللهِ والدارِ الآخرةِ فهو داخلٌ في حكم هذه الآية.

---

(١) التكاثر: ١ – ٤.

ثم تأمَّلْ ـ أيها المؤمن ـ في قوله: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ فجَعَلَ الغايةَ زيارةَ المقابرِ دون الموت.

ولفظ ﴿زُرْتُمُ﴾ مُشعرٌ بأنهم غيرُ مُستوطنين ولا مُستقرِّين في القبور، وأنهم فيها بمنزلةِ الزائرين، يحضرونها مُدّةً ثم يظعنون عنها، وينتقلون إلى دار القرار ـ كما كانوا في الدنيا زائرين لها غيرَ مستقرين فيها، ودار القرار هي الجنة أو النار.

ثم قال سبحانه: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وهذا من الله توعُّدٌ لمن ألهاه التكاثرُ، وعيدًا مؤكدًا إذا عاين تكاثرَه هباءً منثورًا، وعَلِم أن دنياه التي كاثر بها، إنما كانت خدعًا وغرورًا، فوجد عاقبةَ تكاثُرِه عليه، لا لَهُ، وخَسِرَ هنالك تكاثرَه، كما خَسِر أمثالُه، وبدا له من اللهِ ما لم يكنْ في حِسابِه، وصار تكاثرُه الذي شَغَله عن اللهِ والدارِ الآخرةِ من أعظمِ أسبابِ عذابِه، فعُذِّبَ بتكاثرِه في دنياه، ثم عُذِّبَ به في البرزخ، ثم يُعذَّبُ به يوم القيامة، فكان أشقى بتكاثرِه إذْ أفادَ منه العَطَب، دون الغنيمةِ والسلامةِ، فلم يَفُزْ مِنْ تكاثُرِه إلا بأنْ صارَ من الأَقَلِّين! فيا له تكاثُرًا ما أقلّه! ورُزْءًا ما أجلّه! ويا له من غِنىً جالبًا لكلِّ فَقْرٍ! ومالًا تُوصِّلَ به إلى كلِّ شر! يقولُ صاحبُه -إذا انكشف عنه غطاؤه-: ﴿يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾[1]، وعَملتُ فيه بطاعةِ الله قبل وفاتي: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾[2] تلك كلمةٌ يقولها، فلا يُعوَّلُ عليها، ورجعةٌ يَسألُها فلا يُجابُ إليها.

---

(١) الفجر: ٢٤.
(٢) المؤمنون: ٩٩، ١٠٠.

وتأمّلْ حُسْنَ موقعِ ﴿كَلَّآ﴾ في هذا الموضع، فإنها تَضمَّنتْ رَدْعًا لهم، وزَجرًا عن التكاثر، ونفيًا وإبطالًا لما يؤمِّلونه من نفعِ التكاثرِ لهم، وعزتهم وكمالهم به، فتضمنت اللفظة: نهيًا، ونفيًا، وأخبرهم سبحانه أنهم لا بُدَّ أن يعلموا عاقبةَ تكاثرِهم عِلْمًا بعد عِلْم، وأنهم لا بد أن يروا دارَ المكاثرين بالدنيا التي ألهتهم عن الآخرة، رؤيةً بعد رؤية، وأنه سبحانه لا بُدَّ أن يسألَهم عن أسبابِ تكاثرِهم من أين استخرجوها وفيما صرفوها؟[١].

ثم قال تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ يعني: حقًّا؛ لو تعلمون علمَ اليقين لعرفتم أنكم في ضلال، ولكنكم لا تعلمون علمَ اليقين، لأنكم غافلون لاهون في هذه الدنيا، ولو علمتم علمَ اليقين لعرفتم أنكم في ضلالٍ وفي خطأٍ عظيم.

ثم قال تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾[٢]، جُملةُ ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ جملةٌ مُستأنَفَة، لا صلةَ لها بما قبلها، وهي جملةٌ قَسَمّية، فيها قَسَمٌ مقدَّر؛ والتقدير: واللهِ لتُرون الجحيم.

و﴿ٱلْجَحِيمَ﴾ اسمٌ من أسماءِ النار ـ أعاذنا الله منها.

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ تأكيدٌ لرؤيتِها، وسيكون هذا يومَ القيامة، حين يُؤتى بها تُجَرُّ بسبعين ألف زِمام، كلُّ زِمام يجرُّه سبعون ألفَ ملك، فما ظَنُّك بهذه النار ـ والعياذ بالله ـ! إنها نارٌ كبيرةٌ عظيمةٌ؛ لأنّ فيها سبعين ألف

---

(١) ملخصًا من كلام ابن القيم.
(٢) التكاثر: ٦، ٧.

زمام، كلُّ زِمام يجرُّه سبعون ألف ملك، والملائكة عِظَامٌ شِدادٌ فهي نارٌ عظيمة ـ أعاذنا الله منها ـ.

﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾[1] يعني: ثمّ في ذلك الوقت، وفي ذلك الموقف العظيم، تُسألُنَّ عن النعيم.

وهذا السؤال ـ على الصحيح من أقوال العلماء ـ يَشمَلُ المؤمنَ والكافر، فكُلٌّ سيُسْألُ عن النعيم، لكنَّ الكافرَ يُسألُ سؤالَ توبيخٍ وتقريعٍ، والمؤمنَ يُسألُ سؤالَ تذكيرٍ.

والدليلُ على أنّ السؤالَ عامٌّ: ما جرى للنبيِّ ﷺ وأبي بكر وعمر –رضي الله عنهما–، حين خَرجَ الرسولُ ﷺ ذاتَ يوم – أو ليلة – فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال: «ما أخرجَكما من بيوتِكما هذه الساعة؟» قالا: الجوعُ يا رسولَ الله، قال: «وأنا، والذي نفسي بيده، لأَخْرجَني الذي أخرجَكما، قوموا»، فقاموا معه، فأتى رجلًا من الأنصار فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأة، قالت: مرحبًا وأهلًا، فقال لها رسول الله ﷺ: «أين فلان؟» قالت: ذهب يَستعذِبُ لنا من الماء، إذ جاء الأنصاريُّ، فنظَرَ إلى رسولِ الله ﷺ وصاحبيه، ثم قال: الحمدُ لله ما أحدٌ اليومَ أكرمَ أضيافًا مني، قال: فانطَلَقَ، فجاءهم بعِذْق فيه بُسرٌ وتمرٌ ورُطَبٌ، فقال: كلوا من هذه، وأخذ المُدْية، فقال له رسول الله ﷺ: «إياك، والحلوب»، فذبَحَ لهم، فأكلوا من الشاةِ ومن ذلك العِذْق وشربوا، فلما

---

(١) التكاثر: ٨.

أن شبعوا وورووا، قال رسول الله ﷺ لأبي بكر، وعمر: «والذي نفسي بيده، لتُسألُنَّ عن هذا النعيم يومَ القيامة، أخرجَكم من بيوتِكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابَكم هذا النعيمُ»[1].

ولكنْ يختلفُ السؤال، سؤالُ المؤمنِ سؤالُ تذكيرٍ بنعمةِ اللهِ عز وجل عليه حتى يَفْرَحَ، ويَعْلَمَ أنّ الذي أنعمَ عليه في الدنيا يُنعِمُ عليه في الآخرة، بمعنى أنه إذا تكرَّمَ بنعمتِهِ عليه في الدنيا تكرَّم عليه بنعمته في الآخرة، أما الكافرُ فإنه سؤالُ توبيخٍ وتنديمٍ.

قال ابن القيم -رحمه الله- في خاتمة تفسيره لهذه السورة:

«فلله ما أعظمَها من سورةٍ وأَجَلَّها، وأعظمَها فائدة، وأبلَغَها موعظةً وتحذيرًا، وأشدَّها ترغيبًا في الآخرة، وتزهيدًا في الدنيا، على غايةِ اختصارِها، وجَزالةِ ألفاظِها، وحُسْنِ نظمِها، فتبارك من تَكَلَّم بها حقًّا، وبلَّغَها رسولُه عنه وحْيًا»[2].

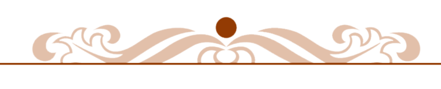
اللهم استعمِلْنا في طاعتِك، واجعلنا لنعَمِك من الشاكرين، وآلائِك من الذاكرين، واجعل ما رزقتنا عونًا لنا على طاعتك، واغفر اللهم لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



---

(١) رواه مسلم (٢٠٣٨).
(٢) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص: ١٩٤).





المجلس الخامس والعشرون

﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾

الحمد لله، والصلاة والسلام على عبدِهِ ورسولِهِ ومصطفاه، أما بعد:

فمِن القَصصِ العظيمةِ التي قصَّها اللهُ تعالى في كتابِهِ، قصةُ سبأ، وبها سُمِّيتْ تلك السورةُ المكيةُ العظيمة، يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْأَخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾[1].

---

(١) سبأ: ١٥ – ٢١.



قال بعضُ العلماءِ عن سياقِ القرآنِ لهذه القصة: «لقد استوعَبَتْ تاريخَ أُمَّةٍ في سطور، وصوّرتْ لنا أطوارًا اجتماعيةً كاملةً في جُمَلٍ قليلةٍ أَبْدعَ تصوير، ووصفتْ لنا بعضَ خصائصِ الحضارةِ والبداوة في جُمَلٍ جامعة، لا أظنُّ غيرَ اللسانِ العربيِّ يتَّسعُ لحملِها: كقوله ﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾، وكقوله: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾، وكقوله: ﴿بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾. حتى إذا وَصَلَ القارئُ إلى مصيرِ الأمةِ التي سمع ما هالَهُ مِن وصفِها، واجَهَهُ قولُه تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾! وأَدْرَكه الغَرَقُ في لُجَجِ البلاغةِ الزاخرة»[١].

أيها المؤمنون!

إنّ مملكةَ سبأٍ نموذجٌ يحكي كلَّ بلدٍ يُنعمُ اللهُ عليها، وتُجبى إليهِ ثمراتُ كلِّ شيء، بل بَلَغَ بهم الحالُ أنَّ أحدَهم لا يحتاجُ إذا أراد السفرَ أنْ يتزوّد، فالخيراتُ في طريقِه، وعن يمينِه وشمالِه، يقطِفُ منها ما يشاء، وامتنّ الله عليهم بذلك فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ﴾ والآيةُ هنا: ما أَدَرَّ اللهُ عليهم من النِّعم، وصَرَفَ عنهم من النِّقم، الذي يقتضي ذلك منهم أن يعبدوا الله ويشكروه. ثم فسّر اللهُ الآية بقوله: ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ وكان لهم وادٍ عظيم، تأتيهِ سيولٌ كثيرة، وكانوا بَنَوا سَدًّا مُحكمًا، يكونُ مَجْمعًا للماء، فكانت السيولُ تأتيه، فيجتمع هناك ماءٌ عظيم، فيُفَرِّقونه على بساتينهم، التي عن يمينِ

---

(١) تفسير ابن باديس (ص: ٣٩٨).

ذلك الوادي وشمالِه. وتغل لهم تلك الجنتان العظيمتان من الثمار ما يكفيهم، ويحصل لهم به الغِبطةُ والسرور، فأمرهم اللهُ بشُكْرِ نِعمِهِ التي أَدَرَّها عليهم من وجوهٍ كثيرة:

منها: هاتان الجنتان اللتان غالِبُ أقواتِهم منهما.

ومنها: أنَّ اللهَ جعلَ بلدَهم، بلدةً طيبة، لحُسْنِ هوائها، وقِلَّةِ وَخَمِها، وحصولِ الرزقِ الرَّغدِ فيها.

ومنها: أنّ اللهَ تعالى وعدَهم - إنْ شكروه - أنْ يَغْفِرَ لهم ويرحَمَهم، ولهذا قال: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾.

ومنها: أنّ اللهَ لما عَلِمَ احتياجَهم في تجارتِهم ومكاسبِهم إلى الأرضِ المباركة، هيّأ لهم من الأسبابِ ما به يتيسَّرُ وصولُهم إليها، بِغايةِ السهولة، من الأمن، وعدمِ الخوف، وتواصُلِ القرى بينهم وبينها، بحيث لا يكونُ عليهم مشقة، بحمْلِ الزادِ والمزاد، ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَـٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَـٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾أي: سيرًا مقدَّرًا يعرفونه، ويحكُمون عليه، بحيث لا يتيهون عنه: ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ أي: مطمئنين في السير، في تلك الليالي والأيام، غيرَ خائفين، وهذا من تمامِ نعمةِ اللهِ عليهم، أنْ أَمَّنَهم من الخوف.

فأعرضوا عن المُنعِم، وعن عبادتِه، وبطروا النعمة، ومَلُّوها، حتى إنهم طلبوا وتمنَّوا أنْ تتباعَدَ أسفارُهم بين تلك القرى، التي كان السير فيها متيسِّرًا،

﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ بكفرِهِم باللهِ وبنعمتِه، فعاقبَهم اللهُ تعالى بهذه النعمة، التي أطغتْهم، فأبادَها عليهم، فأرسَل عليها سيلَ العَرِم، أي: السيل المتوعِّر، الذي خَرَّبَ سَدَّهم، وأتْلَف جَنّاتِهم، وخَرَّبَ بساتينَهم، فتبدَّلتْ تلك الجناتُ ذاتُ الحدائق المُعجِبة، والأشجار المثمِرة، وصار بَدَلها أشجارٌ لا نَفَعَ فيها، ولهذا قال: ﴿وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَىۡ أُكُلٍ﴾ أي: شيءٍ قليلٍ من الأكل الذي لا يقع منهم موقِعًا ﴿خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ﴾ وهذا كلُّه شجرٌ معروف، وهذا من جِنس عملِهم.

فلمّا أصابهم ما أصابهم، تفرَّقوا وتمزَّقوا، بعدما كانوا مجتمعين، وجعلَهم اللهُ أحاديثَ يُتحدَّث بهم، وأسمارًا للناس، وكان يُضرب بهم المثلُ فيقال: «تفرَّقوا أيدي سبأ»، ولكن لا ينتفعُ بالعِبرةِ فيهم إلا مَن قال الله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾ صبّارٍ على المكارهِ والشدائد، يتحمَّلُها لوجهِ الله، ولا يتسخَّطها بل يصبِرُ عليها، شَكورٍ لنعمةِ اللهِ تعالى يُقِرُّ بها، ويعترف، ويُثني على مَن أولاها، ويصرِفُها في طاعتِه. فهذا إذا سَمِع بقصتِهم، وما جَرَى منهم وعليهم، عَرَف بذلك أنَّ تلك العقوبة جزاءٌ لكفرِهم نعمةَ الله، وأنّ مَن فَعلَ مثلَهم، فُعِلَ به كما فُعِل بهم، وأنَّ شكرَ الله تعالى، حافظٌ للنعمة، دافعٌ للنقمة، وأنّ رُسُلَ الله صادقون فيما أَخْبروا به، وأن الجزاءَ حقٌّ، كما رأى أنموذجَه في دار الدنيا[1].

---

(١) انتهى ملخصًا من تفسير السعدي: ص (٦٧٧) وما بعدها.

أيها المؤمنون!

إنّ آفةَ الأكثرين مِن الناسِ أنهم يَحسَبون الغِنى دليلَ الرضوانِ الأعلى، ويحسبون أنّ المالَ إذا قَلّ عند آخرين فلأنهم ليسوا موضعَ القبول! ونَسُوا أنَّ الله يختبرُ بالعطاءِ والحرمان: بالبأساءِ والضراءِ حينًا، وبالنَّعْماءِ والسراءِ حينًا آخر، وأنّ النجاحَ في هذا الاختبارِ يجيءُ من موقِفِ المرءِ نفسه بإزاءِ ما يَلقى مِن أقدارِ الله: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[1].

وقد سَقَطتْ مملكةُ «سبأ» في الامتحانِ عندما استهانت بنعمةِ الله وكَفَرَتها: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾؟ ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾[2]؟

وعندما تزولُ النعمةُ تَذهبُ الوحدةُ والصحةُ والأَمَنَةُ، وتجيءُ أضدادُ هذه الأحوال، وأصحابُها لها أهل، وما نَزل بهم عدل؛ لأنهم: ﴿وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، وأَبْرَزَتْ سورةُ سبأ أنَّ الساقطين فى امتحانِ النعماءِ كثيرون، وأنَّ أُمَمًا بَطِرت معيشتَها، فكان أولُ ما فعلت: مخاصمةَ الوحي، ومعاداةَ الرسل، والزَّعمَ بأنَّ ما لديهم يكفي ويشفي! ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[3].

---

(١) الأنبياء: ٣٥.

(٢) إبراهيم: ٢٨.

(٣) سبأ: ٣٤ - ٣٥.

وإذا كان المالُ فتنةَ الأمم الأولى، فقد بقي فتنةَ الأمم المعاصرة، وبَدَلَ أن يُحْسِنَ الواجدون التصرُّفَ فيما أُوتوا، طَغَوا على الفقراءِ والضعفاء، فنشأت مذاهبُ اجتماعيةٌ تَسْتأصلُ حقَّ التملك، ونَشِبت الحروبُ بين شتى الطبقات.

وعند التأمُّل، نجِدُ العراكَ على الحُطامِ الفاني، ونرى أنّ معالمَ الدينِ قد اخْتَفَت، وزادت الآفاقُ ظلمة، ونشأتْ فلسفاتٌ تَعبُدُ الحياةَ وتنسى الآخرة، ولا نجاةَ إلا بالعودةِ إلى الدينِ الحق: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْأَخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾[1].

اللهم اجعلنا لنعمِك من الشاكرين، وأَعِذْنا يا ربَّنا من حالِ الكافرين لنعمِك، واغفر اللهم لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



(١) ينظر: «نحو تفسير موضوعي» للغزالي: (٣٢٧) بتصرف يسير.





المجلس السادس والعشرون

الحياء كما تصوره قصة موسى والمرأتين[١]

الحمد لله، والصلاة والسلام على عبده ورسوله ومصطفاه، أما بعد:

فثَمَّة خُلُقٌ عظيم، حثَّتْ عليه الشريعة الإسلامية، بل وصفه رسولنا ﷺ بأنه: «خير كله»، وكذلك وصفه بأنه: «لا يأتي إلا بخير»[٢] بل إنه من الإيمان[٣]، كما صح ذلك عنه ﷺ.. إنه خُلُق الحياء.

وسنقف اليوم متدبرين لما جاء عن هذا الخُلُقِ في قصة موسى عليه السلام مع المرأتين، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾[٤].

هذه الآية واحدةٌ من مشاهد قصة موسى عليه السلام التي وردت في سورة القصص، وهو خبره عليه السلام مع فتاتين، هما ابنتا صاحب مدين،

---

(١) لفضيلة أ.د.ناصر بن سليمان العمر، رئيس مجلس إدارة الهيئة العالمية لتدبر القرآن.
(٢) صحيح مسلم عن عمران بن الحصين رضي الله عنه، رقم (٣٧) (١/ ٦٤).
(٣) متفق عليه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، البخاري (٢٤) (١/ ١٤)، ومسلم (٥٩) (١/ ٦٣).
(٤) القصص: ٢٣.

والقصةُ مجرياتها معروفة، لكنَّ فيها دروسًا وعِبَرًا قد يغفل كثير من الناس عنها، وجَديرٌ بنا أن نقف معها متدبِّرين، ناظرين في بعض دلالاتها.

وابتداءً: تأمّلْ ذلك الأدبَ الرَّفيع، والخُلُقَ الكريم من موسى عليه السلام ومن هاتين الفتاتين.

أمّا الفعلُ الذي صدر من موسى عليه السلام فإنه يكشف عن شخصية إيجابية، تتسم بالنُّبل والخلق الكريم، وأما الفتاتان فلا يخفى ما في موقفهما من الحياء والحشمة، والبُعْد عن مخالطة الرِّجال وإن كان ثمنُه عملًا شاقًا، يكلفهما وقوفًا طويلًا، مع جهد في ذود الأنعام حتى لا تختلط بغيرها، فكان هذا مثار السؤال: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾؟

إنّ الشخصية الإيجابية تَكْترث لِمَا يدور في واقعها من الأحداث، ولمّا كان موسى عليه السلام كذلك، ولاحظَ مِن دون أُمَّةِ الناسِ ما لاحظ، ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾، أي: تدفعانِ «غنمَهما عن حياض النَّاس، لعجزِهما عن مزاحمة الرِّجال وبخلهم، وعدمِ مروءتهم عن السَّقي لهما»[1]. فقال لهما عليه السلام: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾؟ وفي كلِّ هذه القصة لم يخاطبهما موسى عليه السلام إلا هذه الكلمة فقط.

---

(١) تفسير السَّعدي: ص ٦١٤.

﴿قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ والأشبه أنَّ الناطقة واحدة، ولكن لمّا كانت الثانية مُقِرَّةٌ راضيةٌ نَسَبَ القولَ لهما فقال: ﴿قَالَتَا﴾، وقولها: ﴿لَا نَسۡقِي﴾ تعبير بالمضارع لا وصف للماضي، يُشعر بأنّ هذا ديدنهما، فلم نَسقِ كما رأيتَ، وهذا حالنا دائمًا وأبدًا هكذا: ﴿حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾، وهذه هي علَّة البُعد والانزواء: وجودُ الرعاء، وهذا شأن العفيفة الطيبة، تصبر على الجهد واللأواء، ولا تختلط بالرجال.

فحَرِيٌّ بالأخوات والبنات أن ينظُرْنَ في هذا الأدب، ويتأمَّلْنَ بَعْده ما يحدث الآن في الأسواق، بل ماذا يحدث في العُمرة، وعند المطاف من المزاحمة!

وقد رُوي عن عطاء رضي الله عنه قوله عن نساء النبيّ -ﷺ-: «لَمْ يَكُنَّ يُخَالِطْنَ، كَانَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها تَطُوفُ حَجْرَةً مِنْ الرِّجَالِ، لَا تُخَالِطُهُمْ فَقَالَتْ امْرَأَةٌ: انْطَلِقِي نَسْتَلِمْ يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَتْ: عَنْكِ، وَأَبَتْ»[1].

فكانت النساء في عهد النبي -ﷺ- يطُفْنَ بعيدًا عن الرِّجال، ودون اختلاط كما في واقعنا اليوم.

وبعضُ الناس اليومَ يجادل، فيحتجّ بواقع الناس على جواز اختلاط النساء بالرجال، وكأنَّ واقع النَّاس مِنهاجٌ شرعيٌّ!

---

(١) صحيح البخاري (١٦١٨).



ولْنَعُدْ إلى قول الفتاتين: ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ ففيه بيانُ ما قد يُستغرب من خروج مثلهما، فكأنهما قالتا: لا تستغربْ خروجَنا، فسببُه أنه ليس عندنا أحدٌ يخرج بالغنم سوانا، فأبونا شيخ كبير.

وقد اختصرتا الجواب الذي يشعر بما وراءه، فذِكْرُ الأبِ وحده يُبيِّن أنه ليس لهما إخوانٌ ذكور، وإلا فلمْ يكن لائقًا أن تخرُج البنات، ولذلك لمّا توسّموا في موسى عليه السلام القوّة والأمانة استأجرَهُ والدُ الفتاتين.

فلْتَعتبرْ بهذا بعضُ من يُكْثِرْن الخروج إلى الأسواق اليوم، مع وجود من يَكفيهنّ مؤونة ذلك.

أيها المؤمنون!

إنّ الاقتضابَ في هذا الحوار، سواءٌ أكان من موسى أم من المرأتين، عجيبٌ وله دلالاتٌ مهمة، تصبُّ في نأي الأفاضل عن فضول الكلام بين الجنسين، ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾[1] فهل سمعتم أنَّ الفتاتين قالتا له: شكرًا؟ أو جزاكَ الله خيرًا؟

إنَّ الكلماتِ الرَّقيقة ربما تُحدِث في النفوس شيئًا، والله عزّ وجلّ يقول في سورة الأحزاب: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾[2].

---

(١) القصص: ٢٤.
(٢) الأحزاب: ٣٢.



لقد قام موسى عليه السلام بالعمل الذي رآه ضروريًّا، ثمّ ابتعد، لم يدفعه الفضول إلى أكثر من ذلك!

﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِى عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٍ﴾[1] وفي هذا الشأن لم تخرج المرأتان كما خرجتا أول مرّة للسقي، بل قال الله تعالى: ﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا﴾، وذلك لأنَّ رعيَ الغنم كان يحتاجُ إليهما معًا، أمّا هنا فالأمر لا يستلزم حضورهما معًا، إنّما هو دعوة.

ولْنتدبَّرْ قوله تعالى: ﴿تَمۡشِى عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٍ﴾لم يقل: على حياء؛ ذلك أنّ إضافة (الهمزة والسين والتاء) يدلُّ على قوة الحياء.

وكانت النساء في عصر النَّبيِّ ﷺ إذا خرجت المرأة من المسجد تلصق بالجدار إذا مرَّ الرِّجال، كما صحَّ في سنن أبي داود عن أسيد الأنصاري « أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- يَقُولُ وَهُوَ خَارِجٌ مِنَ الْمَسْجِدِ فَاخْتَلَطَ الرِّجَالُ مَعَ النِّسَاءِ فِي الطَّرِيقِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلنِّسَاءِ: «اسْتَأْخِرْنَ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكُنَّ أَنْ تَحْقُقْنَ الطَّرِيقَ، عَلَيْكُنَّ بِحَافَاتِ الطَّرِيقِ»، فَكَانَتِ الْمَرْأَةُ تَلْتَصِقُ بِالْجِدَارِ حَتَّى إِنَّ ثَوْبَهَا لَيَتَعَلَّقُ بِالْجِدَارِ مِنْ لُصُوقِهَا بِهِ[2]، أمّا اليوم فقد أصبح بعض الرجال هو الذي يلتصق بالجدار.

---

(١) القصص: ٢٥.

(٢) سنن أبي داود (٥٢٧٤)، وحسنه الألباني، انظر: الصحيحة (٨٥٦).



﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ لم تدْعُه أصالةً عن نفسها، وإنما نسبت الأمر إلى أبيها.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

وتأمَّلوا: مع الفتاتين قال موسى عليه السلام عبارةً واحدةً مقتضبة: ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾، أمّا مع الأب فقد قصّ عليه القصص وتوسَّع في الحديث.

نعم، لك أن تتبسّط في الحديث مع الرجال، أما مع النساء، فمنهج القرآن هو الاقتصاد، مع مراعاة طريقة الكلام التي تبتعد عن الخضوع، والتكسُّر! وعلى الأخوات كذلك أن يقتصدْنَ ويقتصِرْنَ على ما هو ضروريٌّ.

ثم قال تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾[1]، ويبدو أنّها استندتْ في ذلك على أنّ خروجَهما للسَّقي والرَّعي، لا يليق بهما كفتاتين، فاستجاب والدُها؛ لأنه يُريد أن يُحصِّن ابنته، ثمّ خاطب موسى عليه السلام: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ﴾[2].

---

(١) القصص: ٢٦.
(٢) القصص: ٢٧.



ولا يبعد أن يكون من مقصد والدهما من هذه الأُجرة بالزواج أن يكون الراعي للغنم من أهل البيت، لأنّه عند زواجه بالبنت ستصير أمُّها محرمًا له؛ وسيكون من أهل البيت بالجملة.

أما قوله: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ فهذه هي شروط الولاية: القوة والأمانة، وكما في سورة يوسف: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[1].

وهذا متكرر ومطَّرد في القرآن، فلا يُولَّى إلا القويُّ الأمين.

وأخيرًا، وقفةٌ لابد منها تتعلق بتيسير المهر، يقول الشيخ الكبير: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ﴾ على ماذا؟ ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾[2].

عجبًا! هل رأيتم من يُزوِّج ابنتَه بالأقساط الميسَّرة، وبدون دفعة أولى؟ هذا ما لا نعرفه في يومنا هذا إلاّ على طريقة من يؤخِّرون الصداق كلَّه تحسُّبًا للإلزام بالإبقاء على العقد كُرْهًا، فهنيئًا لهذا الشيخ الكبير، وهنيئًا لهذه البنت، فقد ظفرت بتوفيق الله ثم حكمة أبيها وعقله بنبيِّ الله موسى عليه السلام.

---

(١) يوسف: ٥٥.
(٢) القصص: ٢٧.

إنها قصةٌ فيها دررٌ عجيبة، ووقفاتٌ تدبّرية في محراب الفضيلة والعفاف، بعيدًا عن سَعَار الاختلاط الذي تورّط فيه بعض الناس مع كل أسف، فارجعوا إلى القصَّة وتدبَّروها، فإنها حافلةٌ بالمعاني والدِّلالات(١).

اللهم اهدنا لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عنا سيئها، لا يصرف عنا سيئها إلا أنت، واغفر اللهم لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



---

(١) أفدت في هذه المعاني والدّلالات ممّا كتبه واستنبطه بعضُ طلاب العلم، كالشيخ عقيل الشّمري، والشيخ ناصر الحمين، وغيرهما، جزاهم ربّي خيرًا.



المجلس السابع والعشرون

﴿هَٰرُونَ أَخِي﴾[1]

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ؛ نبيِّنا محمدٍ وعلى آلِهِ وصحبِهِ ومَن والاه، أما بعد:

فقد قال الله -عز وجل- في سورةِ (طه) عن موسى -عليه السلام-: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ﴿٣١﴾ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ﴿٣٢﴾ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا﴾[2].

والحديثُ ههنا حولَ قولِه -تعالى-: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي﴾.

أي: مُعِينًا يُعاونني، ويؤازرُني، وسَألَ موسى ربَّه أنْ يكونَ ذلك الوزيرُ مِن أهلِه؛ لأنه من بابِ البرّ، وأَحقُّ الناسِ ببرِّ الإنسانِ قرابتُه، ثم عَيَّنه بسؤالِه، فقال: ﴿هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي﴾ أي: قَوِّني وشُدَّ ظَهرِي به.

---

(١) للدكتور محمد بن إبراهيم الحمد، عضو هيئة التدريس في جامعة القصيم.
(٢) طه: ٢٥ - ٣٥.

﴿وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي﴾ أي: في النبوة، بأنْ تجعلَه نبيًا رسولًا كما جعلتني، فأجابَ اللهُ دعاءَه، وقال: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾[1]، وقال في آية أخرى: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾[2].

ففي هذه الآيةِ إحسانٌ مِن موسى لأَخيهِ هارون -عليهما السلام-، ورغبةٌ منه أنْ يَشترِكَ معه أَخوه في تبليغِ الدعوة، والتعاونِ على البر والتقوى.

ولا ريبَ أنَّ الاشتراكَ بالخيرِ مِن أعظمِ أسبابِ مُضاعفةِ الثواب، ونيلِ المراد؛ لما في ذلك من القوة، وشَدِّ الأَزْر.

وهذا ما حصل لموسى -عليه السلام-؛ ولهذا قيل: إنّ هذه أَعظمُ شفاعةٍ في تاريخِ البشر؛ فهذا هو معنى الآية.

وكما أنَّ هذا هو معنى الآية؛ فهي -كذلك- تُشيرُ إلى ما ينبغي أنْ تكونَ عليه العلاقةُ بين الإخوةِ؛ من المحبة، والتآزر، والتعاون.

ولهذا سُئِلَ حكيمٌ: أيُّهما أحبُّ إليك: أخوك أو صديقُك؟ فقال: «أخي إذا كان صديقي».

فهذه الإجابةُ الحكيمةُ تُشيرُ إلى أنه ينبغي أنْ يكونَ الأخُ صديقًا لأَخيه، دونَ أنْ يكتفيَ بِرابطةِ الأُخوّة؛ وإنْ كانت مِن أعظمِ الروابط.

---

(١) طه: ٣٦.

(٢) القصص: ٣٥.



والمتأملُ في أحوالِ الناس، وما يُكتبُ في العلاقات عمومًا؛ يَلحظُ فتورًا في علاقاتِ الإِخْوَةِ فيما بينهم، وقِلّةً في الكتابات التي تتعرضُ لهذا النوعِ من العلاقات.

فالإِخْوَة -في كثيرٍ مِن الأحيان- يَميلونَ إلى طابَعِ الرَّسميةِ في علاقاتِهم، ورُبما مالوا إلى جانبِ النِّدِّية، وربما كان بعضُهم يَحْقِرُ بعضًا، ولا يقضيه حقَّ الاحترام والتقدير؛ فيَخسَرُ الإِخْوَةُ خسارةً فادحة؛ إذ يَفُوْتهم الأجرُ والتآزُرُ، والتعاونُ على مَرافِقِ الحياة.

ويَفوتهم -أيضًا- جوانبُ كثيرةٌ من السعادةِ والصداقةِ؛ المؤسسةِ على الثقةِ والرابطةِ القوية.

ويُعرِّضون أُسَرَهُمْ، ووالديهم، وأولادَهم؛ لِنكساتٍ وعداواتٍ؛ ربما أَكَلَت الأخضرَ واليابس.

والذي ينبغي في العلاقاتِ بين الإِخوَةِ: أنْ تقومَ على الإيثار، والمحبة، والصفاء، وتَدبُّرِ العواقِب، و تَقديرِ الصغيرِ للكبير، ورحمةِ الكبيرِ بالصغير، وإنزالِ ذي المنزلةِ مكانَهُ اللائق به، وتشجيع المتباطئ والمتكاسل؛ حتى ينهضَ بنفسه، وأنْ يُكَمِّلَ بعضُهم بعضًا؛ حتى يُسعدوا أنفسَهم، وأُسرَهم، وألّا يجعلوا لِقائلٍ فيهم مقالًا.

وإذا قُدِّرَ للإنسانِ أنْ يكونَ ذا شُهْرةٍ، أو علمٍ، أو جاه، أو مالٍ، أو نحو ذلك؛ فيَحْسُنُ به ألا يَنسى نصيبَ إخوانِه منه، وألا يَتطاولَ عليهم.

كما ينبغي لمن كان لهم أخٌ قد نَالَ ما نَالَ مما ذُكِر: أن يُعينوه على نفسه، وألا يَقفِوا أمامَ طموحاتِه، وأنْ يحمِلوا عنه ما يجبُ عليه من نحوِ برِّ الوالدين، وما جرى مجرى ذلك، فيكونوا بذلك شركاءَ له في الأجرِ والنجاح.

ومما يُعين على شيوعِ روحِ الصفاء بين الإخوة: أن يُبادِروا إلى قسمةِ الميراث؛ لكي يظفرَ كلُّ طرفٍ بنصيبِه، ولِيقطعوا دابرَ الفتنةِ، وسوءَ الظن.

ومما يُصفِّي الودَّ بين الإخوة: أن يَحرِصوا على الوِئامِ والاتفاقِ حالَ الشراكة؛ فإذا كان بينهم شراكةٌ في نحوِ تجارةٍ أو غيرِها، فلْيَحرِصوا على ذلك، وعلى أنْ تَسودَ بينهم روحُ الإِيثارِ والمودَّة، والشورى، والرحمة، والصدق، والأمانة، وحسن الظن.

وأنْ يُحِبَّ كلُّ واحدٍ منهم لأخيه ما يحبُّه لنفسِه، وأنْ يَعرِفَ كلُّ طَرَفٍ ما له وما عليه.

كما يحسُنُ بهم أنْ يناقشوا المشكلاتِ بمُنتهى الصراحةِ، والوُضوح، وأنْ يحرِصوا على التفاني والإخلاصِ في العمل.

كما يجمُلُ بهم أنْ يَكتُبُوا ما يتَّفِقون عليه إذا كان الأمرُ يَستدعي ذلك.

فإذا ساروا على تلك الطريقةِ حَلَّتْ فيهم الرحمة، وسَادَتْ بينهم المودة، ونزلتْ عليهم بركاتُ الشركة.

ومن الأمورِ التي تُبقِي على المودةِ بين الإِخوة: لزومُ التواضعِ، ولينُ الجانِب، والتغاضي، والتغافُلُ، والصفحُ، ونسيانُ المعايبِ، وتركُ المِنّة على الإِخوة، والبُعدُ عن مطالبتِهم بالمِثْل، وتَوطِينُ النفسِ على الرضا بالقليلِ مما يأتي منهم، ومراعاةُ أحوالهم، وطبائعِهم، وتجنبُ الشدَّةِ في العتابِ حالَ وقوعِ الخطأ، وتجنُّبُ الخصام، والجِدالُ العقيم، والمبادرةُ بالهديةِ والزيارةِ إن حَصَلَ خِلاف.

ومن ذلك أنْ يَستحضِرَ المرءُ أنّ إِخوانَه لُحْمَةٌ منه؛ فلا بُدَّ له منهم، ولا فِكاكَ له عنهم.

ومن ذلك أنْ يَستحضِرَ المرءُ أنّ معاداةَ الإِخوةِ شرٌّ وبلاءٌ؛ فالرابحُ فيها خاسرٌ، والمنتصرُ مهزومٌ.

ومن ذلك أن يُربيَ الإِخوةُ أولادَهم على احترامِ أعمامِهم، وتوقيرِهم.

هذا وقد أرانا العَيانُ نماذجَ رائعةً، ومُثُلًا عُلْيا من صداقاتِ الإِخوة، وقيامِهم بالحقوقِ ما جَعلَهم مَضرِبَ مَثَل، ومَوضِعَ أُسْوة.

وبعد، فهذه إلماحاتٌ وإشاراتٌ مِن قوله -تعالى-: ﴿هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى﴾.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد.





المجلس الثامن والعشرون

﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾[1]

الحمد لله، والصلاة والسلام على عبدِهِ ورسولِهِ ومصطفاه، أما بعد:

فلا يكادُ يَمُرُّ على المسلمِ يومٌ أو أقل، إلا ويأتيهِ خبرٌ أنّ فلانًا قال وقال، أو أنّ شيئًا حَدَث، أو أنّ أمرًا حصل؛ وذلك لكثرةِ وسائلِ الاتصالِ في هذا العصر، ولتعدُّدِ وسائلِ الأخبارِ ونقلِ المعلومات.

والمسلمُ مُطالَبٌ أنْ يلتزمَ بحدودِ الشرعِ في هذا الموضوعِ وغيرِه، والذي رسمَهُ القرآنُ بذلك التوجيهِ الربانيِّ العظيم، فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾[2].

هذه الآيةُ القرآنيةُ الكريمةُ جاءتْ ضِمنَ سياقِ الآدابِ العظيمةِ التي أدَّبَ اللهُ بها عبادَه في سورةِ الحجرات.

---

(١) للدكتور عمر بن عبدالله المقبل، نائب رئيس مجلس إدارة الهيئة العالمية لتدبر القرآن، والأستاذ المشارك في جامعة القصيم.
(٢) الحجرات: ٦.



وهذه الآيةُ ـ أيها المؤمنون ـ نَزَلتْ لأنّ رسولَ الله ﷺ اتفق مع سيّدِ بني المصطلِق -الحارث بن أبي ضرار- بأنْ يُرسِلَ له من يأخذُ زكاةَ بني المصطلق، ولَمّا حانَ وقتُ الزكاةِ أرسلَ رسولُ اللهِ ﷺ الوليدَ بنَ عقبة إلى بني المصطلق ليأتي بزكواتهم، فلما وصل الوليدُ إلى مُنتصفِ الطريق خافَ على نفسه القتل، فرجعَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ فقال يا رسول الله: إنّ الحارثَ منعني الزكاةَ وأرادَ قتلي!

فغضِبَ رسولُ الله ﷺ وبَعَثَ بَعْثًا إلى الحارثِ سيدِ بني المصطلق، والحارثُ لا يعلمُ بشيءٍ مما حَدَثَ، ولكنه لَمّا شَعر أنّ رسولَ اللهِ لم يُرسِلْ له أحدًا تَحَرّكَ إلى رسولِ الله، فالتقى الحارثُ بالبعثِ الذي بعثَه الرسولُ ﷺ إليه! فقالوا له: أتاك الوليدُ فمنعتَه الزكاةَ وأردتَ قتلَه! فقال الحارث: لا والذي بعثَ محمدًا بالحقِّ ما رأيتُه ولا أَتَاني!! ثم انطلق الحارثُ إلى رسولِ الله ﷺ فقال له رسولُ الله: منعْتَ الزكاةَ وأردتَ قتْلَ رسولي؟ فقال الحارث: لا والذي بعثك بالحق ما رأيتُه ولا أتاني! وما جئتُك إلا حينما تأخَّرَ رسولُك إليّ، فخشيتُ أنْ تكونَ سخطة من اللهِ ورسولِه علينا، فنزلتْ آيةُ الحجرات: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾[1].

---

(١) رواه الإمام أحمد (١٨٤٥٩) بسند لا بأس به، وقال ابن عبد البر (الاستيعاب) عند ترجمة الوليد بن عقبة: ولا خلاف بين أهل العلم بتأويل القرآن -فيما علمت- أن قوله عز وجل: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ﴾ نزلت في الوليد بن عقبة وذلك أنه بعثه رسول الله.

ولْنَعُد إلى شيءٍ من دلالاتِ هذه الآيةِ القرآنيةِ، والتي يجدُرُ بنا أنْ نقفَ معها:

الدلالة الأولى: أنّ خَبَرَ العدلِ مقبولٌ غيرُ مردود، اللهمّ إلا إنْ لاحتْ قرائنُ تدلُّ على وهمِهِ وعدمِ ضبطِه فإنه يُرَدّ.

الدلالة الثانية: «أنه سبحانه لم يأمُرْ بردِّ خبرِ الفاسقِ وتكذيبِه وردِّ شهادتِه جملةً، وإنما أمر بالتبيُّن، فإنْ قامتْ قرائنُ وأدلةٌ من خارجٍ تدلُّ على صدقه عَمِلَ بدليلِ الصدق، ولو أَخْبَرَ به من أخبر»[١].

الدلالة الثالثة: أنها تضمّنتْ ذمَّ التَّسرُّعِ في إذاعةِ الأخبارِ التي يُخشى من إذاعتِها، ولقد عابَ ربُّنا تبارك وتعالى هذا الصنفَ من الناس، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾[٣].[٤].

الدلالة الرابعة: أنّ في تعليلِ هذا الأدبِ بقوله: ﴿أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ﴾ ما يُوحي بخُطُورةِ التعجُّلِ في تلقّي الأخبارِ عن كلِّ أحدٍ، خصوصًا إذا ترتَّبَ على تصديقِ الخبرِ طعنٌ في أحد، أو بهْتٌ له.

---

(١) مدارج السالكين: (١/ ٣٦٠).
(٢) النساء: ٨٣.
(٣) يونس: ٣٩.
(٤) ينظر: القواعد الحسان في تفسير القرآن(٩٨).

وهنا مثالٌ قد يواجِهُنا يوميًا: فقد يرى أحدُنا شخصًا دخلَ بيتَه والناسُ متجهون إلى المساجِدِ لأداءِ صلاتهم، فلو قيل: إنّ فلانًا دخلَ بيتَه والصلاةُ قد أُقيمت، لكان ذلك القولُ صوابًا، لكن هل تَبيَّن سببُ ذلك؟ وما يدريه؟! فقد يكونُ الرجلُ لتوِّه قدِمَ من سَفَرٍ، فهو قد جَمَعَ الصلاتين جَمْعَ تقديم، فلمْ تجبْ عليه الصلاةُ أصلًا، أو لغيرِ ذلك من الأعذار!

وهذا مثالٌ آخرُ قد يواجِهُنا في شهرِ رمضانَ مثلًا: قد يرى أحدُنا شخصًا يشربُ في نهارِ رمضانَ ماءً أو عصيرًا، أو يأكلُ طعامًا في النهار، فلو نَقَلَ ناقلٌ أنه رأى فلانًا من الناسِ يأكلُ أو يشربُ لكان صادقًا، ولكن هل تبيَّن حقيقةَ الأمر؟ قد يكونُ الرجلُ مسافرًا وأفطرَ أوَّلَ النهارِ فاستمرّ في فِطرِهِ - على قولِ طائفةٍ من أهلِ العلمِ في إباحةِ ذلك - وقد يكونُ مريضًا، وقد يكونُ ناسيًا،... إلى آخرِ تلك الأعذار.

إذا تبيّنَ هذا المعنى، فإنّ من المؤسفِ أن يَجِدَ المسلمُ خَرْقًا واضحًا من قِبَلِ كثيرٍ من المسلمين لهذه الآيةِ القرآنيةِ المحكمة: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾، وازدادَ الأمرُ واتَّسَع مع وسائلِ الاتصالِ المعاصرةِ؛ كأجهزةِ الجوالِ والإنترنت، ووسائلِ التواصلِ الاجتماعي، وغيرِها من الوسائل!

وأعظمُ مَن يُكذَبُ عليه من الناسِ في هذه الوسائلِ هو رسولُ الله ﷺ، فكم نُسِبتْ إليه أحاديثُ وقصصٌ لا تصحُّ عنه! بل بعضُها كَذِبٌ عليه، لا يَصحُّ أن يُنسبَ لآحادِ الناسِ؛ فضلًا عن شخصِهِ الشريفِ ﷺ!

ويلي هذا الأمرَ في الخطورةِ: التّسرُّعُ في النَّقلِ عن العلماء، خصوصًا العلماء الذين يَنتظرُ الناسُ كلمتَهم، ويتتبَّعون أقوالهم، وكلُّ هذا محرّم لا يجوز، وإذا كنّا أُمرْنا في هذه الآية القرآنية: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ أن نتحرَّى ونتثبَّتْ من الأخبارِ عمومًا؛ فإنها في حقِّ النبي ﷺ وحقِّ ورثتِه أشدُّ وأشد.

ومثل ذلك يقال: في النَّقل عمّا يصدُرُ عن خواصِّ المسلمين، ممن يكونُ نقلُ الكلامِ عنهم له أثرُه، فالواجبُ التثبُّتُ والتبيُّن، قبل أنْ يندمَ الإنسانُ حين لا ينفعُ الندم.

ولا يَقتصِرُ تطبيقُ هذه الآية القرآنية: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ على ما سبق ذكرُه، بل هي قاعدةٌ يحتاجُها الزوجان، والآباءُ مع أبنائهم، والأبناءُ مع آبائهم.

ولله كمْ مِن بيتٍ تَقوّضتْ أركانُهُ بسببِ الإخلالِ بهذهِ الآيةِ القرآنية!

قد تَصِلُ رسالةٌ إلى جوّالِ أحدِ الزوجين، فإنْ كانتْ مِن نصيبِ جوالِ الزوجة، واطّلع الزوجُ عليها، سارَعَ إلى الطلاقِ قبلَ أنْ يتثبَّتَ مِن حقيقةِ هذهِ الرسالة، التي قد تكونُ رسالةً طائشةً، جاءتْ من مُغرِض أو مِن سفيهٍ، أو قد تكونُ جاءتْ على سبيلِ الخطأ!

وقُلْ مِثلَ ذلك: في حقِّ رسالةٍ طائشةٍ -جادة أو هازلة- تَصِلُ إلى جوالِ الزوج، فتكتشِفُها الزوجة، فتتّهِم زوجَها بخيانةٍ أو غيرِها، فتُبادِر إلى طَلَبِ الطلاقِ قَبلَ أنْ تتثبَّتَ مِن حقيقةِ الحال!

ولو أنّ الزوجين أَعْملا هذه الآيةَ القرآنية: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ لما حَصَل هذا كلُّه.

وإذا انتقلْتَ إلى مَيدانِ الصحافةِ أو غيرِها من المنابرِ الإعلامية؛ وجدتَ عجبًا من خَرْقِ سياجِ هذا الأدب.. فكمْ مِن تحقيقاتٍ صحفيةٍ بُنيتْ على خبرٍ إما أصلُه كذبٌ، أو ضُخّمَ وفُخّمَ حتى صُوّرَ للقراء على أنّ الأمرَ بتلك الضخامةِ والهول، وليس الأمرُ كما قيل!

والواجبُ على كلِّ مؤمنٍ مُعظّمٍ لكلام ربِّه أنْ يتقيَ ربَّه، وأن يتمثل هذا الأدبَ القرآنيَّ الذي أرشدت إليه هذه الآيةُ القرآنيةُ الكريمة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ﴾.

جعلنا الله وإياكم من المتأدِّبين بأَدَبِ القرآنِ، العاملين به.

اللهم اغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وصلى الله وسلم على رسولنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.





المجلس التاسع والعشرون

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[1]

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على عبدِه ورسولِهِ ومصطفاه، أما بعد:

فيقولُ الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

هذه الآيةُ العظيمةُ تُعدُّ بَلْسَمًا لكثيرٍ مِن الأَدواءِ التي يُبتلى بها كثيرٌ مِن العُقلاء؛ حيثُ يُبتلَون بِمَن لا خلاقَ لهم مِن السفهاءِ الذين يُثيرونَ حولهم الغُبار، ويُسيؤون إليهم بالكلامِ البذيءِ المؤذي.

ويَكثرُ ذلك في بعضِ الدوائرِ التي تَضُمُّ خَليطًا مِن الناس، كما يَشِيعُ في مجتمعاتِ الطلابِ والمعلِّمين.

وخَيرُ علاجٍ لتلك الإساءاتِ هو الإعراضُ عن الجاهلين؛ فمَن أَعْرَضَ عنهم حَمَى عِرْضَه، وأَرَاحَ نفسَه، وسَلِم مِن سَماعِ ما يؤذيهِ.

قال -عز وجل-: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[2]

---

(١) للدكتور محمد بن إبراهيم الحمد، عضو هيئة التدريس في جامعة القصيم.
(٢) الأعراف: ١٩٩.



فبالإعراضِ عن الجاهلين يَحفَظُ الرَّجُلُ على نفسه عِزَّتَها، إذ يَرفَعُها عن الطائِفةِ التي تَلذُّ المهاترةَ والإقذاع، قال بعض الشعراء:

إني لأُعرِضُ عن أشياءَ أسمَعُها ... حتى يقولَ رجالٌ إنَّ بي حَمَقا

أَخشى جَوابَ سفيهٍ لا حياءَ له ... فَسْلٍ وظَنَّ أُناسٌ أنه صَدَقا

وقال أبو العتاهية:

والصَّمْتُ للمرءِ الحليمِ وِقايةٌ ... يَنفي بها عن عِرْضِه ما يَكْرَهُ

فَكِلِ السفيهَ إلى السفاهةِ وانتصِفْ ... بالحلمِ أو بالصمتِ ممن يَسْفَهُ

والعَرَبُ تقول: «إنَّ مِن ابتغاءِ الخيرِ اتقاءَ الشر».

ورُوي أنَّ رجلًا نَالَ مِن عمرَ بن عبدِ العزيز -رضي الله عنه- فلم يُجِبْه، فقِيل له: ما يَمنعُك منه؟.... قال: التَّقيُّ مُلْجَمٌ.

هذا وإنَّ مِن أعظمِ ما يُعِينُ على الإعراضِ عن الجاهلين -زيادة على ما مضى- ما يلي:

أولًا: التَّرَفُّعُ عن السِّباب؛ فذلك مِن شَرَفِ النَّفْس، وعلوِّ الهمة، كما قالت الحكماء: «شَرَفُ النَّفسِ أنْ تَحْمِلَ المكارِهَ كما تحمِلُ المكارِمَ».

قال الأصمعي: «بَلَغَني أنّ رَجُلًا قال لآخَرَ: واللهِ لَئِن قُلتَ واحدةً لَتَسْمَعَنَّ عشرًا. فقال الآخرُ: لكنَّك إنْ قلتَ عشرًا لم تَسمعْ واحدة».

وشَتَمَ رجُلٌ الحسنَ، وأَربى عليه، فقال له الحسنُ: «أَمّا أنت فما أَبقَيتَ شيئًا، وما يَعلمُ اللهُ أكثر».

ثانيًا: استحضارُ كونِ الإساءة دليلًا على رفعةِ شأنِ المُساءِ إليه، وشَرَفِه؛ فذلك مما يُهوِّنُ ما يَلقى من سبٍّ وتجريحٍ.

.... وما زالت الأشراف تُهجَى وتُمدَحُ

قال الإمام الشافعي -رحمه الله-:

إذا سَبَّني نذلٌ تزايدتُ رفعةً ... وما العيبُ إلا أنْ أكونَ مُسابِبُه

ولو لم تكنْ نفسي عَليَّ عزيزةً ... لَمَكَّنْتُها مِن كلِّ نذلٍ تحاربُه

ثالثًا: الاستهانةُ بالمسيء؛ فذلك من ضُروبِ العِزَّةِ والأَنَفَة، ومِن مُستحسَن الكِبْرِ والإعجاب، ومِن ذلك قولُ بعضِ الزعماءِ في شِعرِه:

أَوَ كلما طَنَّ الذبابُ طَرَدْتُه ... إنَّ الذبابَ إذًا عَلَيَّ كريمُ

وأَكْثَرَ رجلٌ مِنْ سَبِّ الأحنفِ وهو لا يجيبه، فقال السَّابُّ: واللهِ ما مَنَعَ الأحنفَ من جوابي إلا هواني عليه.

وفي مثله يقولُ الشاعر:

نَجا بِكَ لُؤْمُكَ مَنْجَى الذبابِ ... حَمَتْهُ مقاذِيرُه أنْ يُنالا

وشَتَمَ رَجلٌ الأحنفَ، وجَعَلَ يَتبعُه حتى بَلَغَ حَيَّه، فقال الأحنفُ: يا هذا إنْ كان بَقِيَ في نفسِك شيءٌ؛ فهاتِه وانْصَرِفْ؛ لا يَسْمَعْكَ بعضُ سفهائِنا، فَتَلْقَى ما تَكْرَه.

وأَسمَعَ رَجلٌ ابنَ هُبَيرةَ فأَعرَضَ عنه، فقال: إياكَ أَعْني، فقال له: وعَنك أُعْرِض.

رابعًا: أنْ يَستحضِرَ أنّ مجاراةَ السفهاءِ شرٌّ وبلاء، فهناك مَن إذا ابتُلي بسفيهٍ ساقط -لا خلاقَ له، ولا مروءة فيه- أَخَذَ يُجَاريهِ في سَفهِهِ وقِيلِهِ وقالِه، مما يجعلُه عُرضةً لِسماعِ ما لا يُرضيه؛ مِن ساقطِ القولِ ومرذولِه، فيُصبِحُ بذلك مُساويًا للسفيه؛ إذ نَزَلَ إليه، وانحطَّ إلى رتبتِه.

إذا جَارَيتَ في خُلُقٍ دنيئًا فأنت ومَن تُجاريهِ سواءُ

قال الأحنفُ بن قيس: «مَن لم يَصبِرْ على كلمةٍ سَمِعَ كلمات، وَرُبَّ غَيظٍ تَجَرَّعتُهُ مَخافةَ ما هو أشدُّ منه».

خامسًا: أن يَستحضِرَ الإنسانُ أنه بالإعراضِ عن الجاهلين يُكرِمُ نفسَه بذلك، ويُكرِمُ قرابةَ السفيهِ الأبرياءِ الأعزاء؛ لأنهم لا ذنبَ لهم، ولهذا قيل: «لِأَجْلِ عينٍ تُكْرَمُ أَلْفُ عين».

وقد يَظُنُّ ظانٌّ أنَّ الإعراضَ عن الجاهلِ والإغضاءَ عن إساءتِهِ -مع القدرةِ عليه- مُوجِبٌ للذِّلَّةِ والمهانة، وأنه قد يَجُرُّ إلى تَطَاوُلِ السفهاء! وهذا خطأ؛ ذلك أنَّ العفوَ والحلمَ لا يَشتبِهُ أيٌّ منهما بالذّلّةِ بحال؛ فإنَّ الذِّلّةَ احتمالُ الأذى على وجهٍ يُذْهِبُ الكرامة.

أمّا الحلمُ فهو إغضاءُ الرَّجُلِ عن المكروه، حيثُ يَزيدُه الإغضاءُ في أَعيُنِ الناسِ رفعةً ومَكانة.

سياسةُ الحِلْمِ لا بَطْشٌ يُكدِّرُها   فهو المَهيبُ ولا تُخشى بوادِرُه

فالعفوُ إسقاطُ حَقِّك جُوْدًا، وكَرَمًا وإحسانًا؛ مع قُدرتِك على الانتقام، فتُؤثِرُ الترك؛ رغبةً في الإحسانِ ومكارمِ الأخلاق.

بخلافِ الذُّل؛ فإنّ صاحبَه يَترُكُ الانتقامَ عَجْزًا، وخوفًا ومهانةَ نفس؛ فهذا غيرُ محمود، بل لعلَّ المُنتَقِمَ بالحقِّ أَحسَنُ حالًا منه؛ لأنَّ مِن الناسِ مَن بَلَغت به الرقاعةُ واللؤمُ أنْ يُفسِّرَ الإكرامَ والإغضاءَ بالضعف، وعليه يُحمل قولُ أبي الطيب المتنبي:

إذا أنت أكرمتَ الكريمَ ملكتَه   وإنْ أنت أكرمتَ اللئيمَ تمرَّدا

وقولُ الشَّريفِ الرَّضي:

في الناسِ إنْ فتَّشتَهم   مَنْ لا يُعِزُّك أو تُذِلَّه
فاتركْ مجاملةَ اللئيـ   ـمِ فإنَّ فيها العجزَ كُلَّه

ومعنى قولِه: «أو تذله»: إلا أنْ تُذِلَّه، كما في الشاهدِ النحوي:

وكنتُ إذا غَمَزْتُ قناةَ قوم   كسرتُ كعوبَها أو تَستقيما

أي: إلا أنْ تَستقيما.

وهذا راجعٌ إلى حكمةِ الإنسان، وتقديرِه الأمورَ، وتدبُّرِه للعواقب؛ فيَعرِف متى يأخُذُ بالحزم، ومتى يأخذُ بالحلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.



المجلس الثلاثون

﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾

الحمدُ لله، والصلاةُ والسلامُ على عبدِه ورسولِه ومصطفاه، أما بعد:

فيقولُ اللهُ تباركَ وتعالى في صَدرِ سورةِ الروم: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ اللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾[1].

يقولُ العلّامةُ الشنقيطيُّ: -في تعليقِهِ على هذه الآيةِ الأخيرة: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾-: «اعلمْ أنه يجبُ على كلِّ مسلم في هذا الزمانِ أنْ يتدبَّرَ آيةَ «الروم» هذه تدبُّرًا كثيرًا، ويُبيِّنَ ما دَلَّتْ عليه لكلِّ مَن استطاع بيانه له من الناس.

---

(١) الروم: ١ - ٧.

وإيضاحُ ذلك: أنَّ مِن أعظم فتنِ آخرِ الزمانِ التي ابتلى اللهُ بها ضعافَ العقولِ من المسلمين، شِدَّةَ إتقانِ الإفرنجِ لأعمالِ الحياةِ الدنيا، ومهارتَهم فيها على كثرتِها، واختلافِ أنواعِها، مع عجزِ المسلمين عن ذلك، فظنوا أنَّ مَن قَدَر على تلك الأعمالِ أنه على الحق، وأنَّ مَن عَجَز عنها مُتخلِّف وليس على الحق، وهذا جهلٌ فاحش، وغلطٌ فادح.

وفي هذه الآيةِ الكريمةِ إيضاحٌ لهذه الفتنة، وتخفيفٌ لشأنها، أَنزَلَه اللهُ في كتابِه قَبلَ وقوعِها بأزمانٍ كثيرة، فسبحانَ الحكيمِ الخبيرِ ما أعلَمَه، وما أعظمَه، وما أحسنَ تعليمه!

فقد أوضح -جل وعلا- في هذه الآيةِ الكريمة: أنَّ أكثرَ الناسِ لا يعلمون، ويدخُلُ فيهم أصحابُ هذه العلومِ الدنيويةِ دخولًا أوّليًا، فقد نفى عنهم -جل وعلا- اسمَ العلمِ بمعناه الصحيحِ الكامل؛ لأنهم لا يعلمون شيئًا عَمّن خلقَهم، فأبرزَهم مِن العَدَمِ إلى الوجود، ورزَقهم، وسوف يميتُهم، ثم يحييهم، ثم يجازيهم على أعمالِهم، ولم يعلَموا شيئًا عن مصيرِهم الأخيرِ الذي يُقيمون فيه إقامةً أبديةً في عذابٍ فظيعٍ دائم، ومن غَفَل عن جميعِ هذا فليس معدودًا من جِنس مَن يَعْلم؛ كما دلّت عليه الآياتُ القرآنيةُ المذكورة، ثم لمّا نفى عنهم -جل وعلا- اسمَ العلمِ بمعناه الصحيح الكامل، أَثبَتَ لهم نوعًا من العلمِ في غايةِ الحقارةِ بالنسبة إلى غيرِه.

وعابَ ذلك النوعَ المذكورَ من العلم، بعيبين عظيمين:

أحدهما: قِلته وضِيق مجالِه، لأنه لا يُجاوِزُ ظاهرًا من الحياةِ الدنيا، والعلمُ المقصورُ على ظاهرٍ من الحياةِ الدنيا في غايةِ الحقارة، وضيق المجالِ بالنسبةِ إلى العلم بخالقِ السماوات والأرض -جل وعلا-، والعلم بأوامرِه ونواهيه، وبما يُقرِّبُ عبدَه منه، وما يُبعِدُه عنه، وما يُخلِّدُ في النعيمِ الأَبَديِّ والعذابِ الأبديِّ من أعمالِ الخيرِ والشر.

والثاني -مما عابَ اللهُ به علْمَهم ذلك-: هو دناءةُ هدفِ ذلك العلم، وعدمِ نُبْلِ غايتِه، لأنه لا يتجاوزُ الحياةَ الدنيا، وهي سريعةُ الانقطاعِ والزوال، ويكفيك من تحقيرِ هذا العلمِ الدنيويّ أنَّ أَجْودَ أوْجُهِ الإعرابِ في قوله: ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا﴾ أنه بدلٌ من قوله -قبله-: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ فهذا العلم كـ(لا علم) لحقارتِه.

وقوله: ﴿ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ يُفيدُ أنَّ للدنيا ظاهرًا وباطنًا، فظاهِرُها ما يعرفُه الجُهّال مِن التمتعِ بزخارِفِها، والتنعُّمِ بملاذِّها وباطِنِها، وحقيقتُها أنها مجازٌ إلى الآخرة، يتزوَّدُ منها إليها بالطاعةِ والأعمالِ الصالحة.

وفي مجيءِ قولِه: ﴿ظَٰهِرٗا﴾ -بصيغةِ التنكير- دليلٌ على أنهم لا يعلمون إلا ظاهرًا واحدًا من ظواهِرِها.

والضمير ﴿وَهُمۡ﴾ الثانية في الآية ﴿هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ أيًّا كان إعرابُها على اختلافِ النحاة، فإنّ ذِكْرَها منادٍ على أنهم معدِنُ الغفلةِ عن الآخرة، ومَقرُّها، ومحلُّها، وأنها -أي الغفلة- منهم تَنبَع، وإليهم ترجِع.

وقال بعضُ العلماء: وفي تنكيرِ قولِه: ﴿ظَـٰهِرًا﴾ تقليلٌ لمعلومِهم، وتقليلُه يُقرِّبُه من النفي، حتى يُطابقَ المُبدَلَ منه، ووجهُهُ ظاهر.

واعلم أنّ المسلمين يجبُ عليهم تَعلُّمُ هذه العلوم الدنيوية، كما أوضحْنا ذلك غايةَ الإيضاح في سورة «مريم»، في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾﴾[1]، وهذه العلومُ الدنيويةُ التي بيَّنّا حقارتَها بالنسبةِ إلى ما غَفَلَ عنه أصحابُها الكفار، إذا تعلَّمها المسلمون، وكان كلٌّ مِن تعليمِها واستعمالِها مُطابِقًا لما أمرَ اللهُ به على لسانِ نبيه ﷺ، كانت مِن أشرفِ العلوم وأنفعِها؛ لأنها يُستعانُ بها على إعلاءِ كلمةِ الله ومرضاته -جل وعلا-، وإصلاحَ الدنيا والآخرة، فلا عيبَ فيها إذن؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾[2]، فالعملُ في إعدادِ المستطاعِ من القوةِ امتثالًا لأمرِ الله تعالى، وسعيًا في مرضاتِه، وإعلاءِ كلمتِه ليس مِن جِنسِ عِلمِ الكفارِ الغافلين عن الآخرةِ كما ترى، والآياتُ بمثلِ ذلك كثيرة، والعلم عند الله تعالى» انتهى كلامُ الشنقيطي.

نسألُ اللهَ تعالى أنْ يُعيدَ للأُمّة مجدَها وعِزّتَها، وأنْ تأخذَ بأسبابِ القوةِ الدينيةِ والدنيوية، وأنْ يَخذُلَ أعداءَهم.

اللهم واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



---

(١) مريم: ٧٨.
(٢) الأنفال: ٦٠.



فهرس المحتويات